إفلاس الماركسية

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

نحـو عقلـية
إسلامية واعية (١٦)

إفلاس الماركسية

بقلم
أحمد حسين
زعيم حزب مصر الفتاة

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا الكتيب « إفلاس الماركسية » كتبه أحمد حسين فى غضون عام ١٩٧١ (أى خلال فترة مرضه بالشلل) ، وقد كان أحمد حسين يتمنى أن تكون مناقشته « للنظرية الماركسية » ـــ التى أهتم بمعارفتها بشكل خاص فى المرحلة الأخيرة من حياته الفكرية ـــ أكثر اتساعاً وشمولاً ، لا أن تأتى أقرب إلى مقال طويل ، ولكن ظروف المرض حالت دون الدراسات المستفيضة ومع ذلك فعندما أعدت قراءة المخطوط وجدته جامعاً للقضايا الأساسية التى تثيرها الماركسية ، والخلاصة فكره المناقض للمنهج الماركسى ، الذى تحلل مئات المقالات التى كتبها فى المجالات والصحف المختلفة .

وقراءة هذا المخطوط الآن ـــ والذى ينشر لأول مرة ـــ يتسم بإثارة فكرية غير عادية ، فهو يناقش ذات المعضلات التى تفجرت على أوسع نطاق فى الاتحاد السوفيتى فى عهد جورباتشوف وتحت شعار ما سمى البيروسترويكا أو إعادة البناء ... فالكتيب ـــ قبل سبعة عشر عاماً ـــ تنبأ بكل الطرق المسدودة التى سيصل إليها النظام الاجتماعى والاقتصادى فى الاتحاد السوفيتى : انخفاض الإنتاجية ـــ التخلف عن الغرب ومستواه الاستهلاكى ، وبحث القضايا التى تناقش الآن علناً فى

الاتحاد السوفيتى : العودة للأديان ــ التوسع فى المشروعات الصغيرة الخاصة ــ التوسع فى الحافز الفردى للاستثمار الوطنى والأجنبى !

ويتسم نشر هذا المخطوط بأهمية إضافية ذلك أن هذا الكتاب بالتحديد له أسباب أخرى :

١ ــ أن الشباب الوطنى من جيلنا يسعى لبلورة أفكاره ، والبحث عن صيغ مبتكرة لمواجهة تحديات عصره ، وأنه فى مسيس الحاجة لدرس المذاهب التقليدية حتى لايقع أسير القوالب الجامدة والجاهزة .

٢ ــ أنه وعلى خلاف ما يبدو على السطح ، من أن بلادنا محصنة بصورة طبيعية من الماركسية ودعاتها ، وأنها منبتة عن الجذور الجماهيرية رغم الدعاية لها لأكثر من نصف قرن ، فإنها يمكن أن تمثل رافداً لتبديد القوى الوطنية ، عن طريق اجتذاب عناصر شابة جديدة من النخب المثقفة ، ولا شك أن النخبة المثقفة فى أى مجتمع هى عقله المفكر ، ولايمكن لأى مجتمع أن ينهض مالم تجمع نخبته القائدة ، أو تتفق بصورة شبه إجماعية على طريق واحد ، وعلى نموذج حضارى شامل واحد تجرى الخلافات فى إطاره . ولاشك أن عقل الأمة (نخبتها) منقسم حالياً بصورة حادة وأليمة بين أنصار الحضارة الإسلامية وحضارة الشرق المتدين بشكل عام ، وبين أنصار العلمانية التى تشكل الماركسية واحدة من أهم روافدها . وهو الأمر الذى يستوجب المزيد من النقاش الفكرى والعقلى الصادق ، لإعادة صياغة وتوحيد العقل المصرى .

* * *

ومناقشة الماركسية لايمكن أن تكون معزولة عن تطبيقاتها فى المعسكر الشيوعى التى تجاوزت عامها السبعين ، وقد توقف الكتاب بالطبع عن الاستعانة بأمثلة عند عام ١٩٧١ ، إلا أن تطور الأحداث أثبت بصورة مذهلة كل استنتاجات الكتاب أو معظمها وقدم مدداً لاحصر له من الوقائع الدامغة الإضافية على مدار ١٧ عاما (١٩٧١ — ١٩٨٨) . يتضح ذلك فى مجال عجز نظرية ماركس عن تحليل وتفسير استمرار الأوضاع واستقرارها فى العالم الرأسمالى الغربى على خلاف كل التوقعات ، والتحول الإجبارى فى بنية الحركة الشيوعية الأدربنية والتى أصبحت تسمى « الأوروشيوعية » ! لتتلاءم مع واقع تجربتها وبلادها بعيداً عن التهويمات النظرية للقرن التاسع عشر . يقول أحمد حسين : ففى فرنسا وإيطاليا ملايين من العمال الشيوعيين ومع ذلك فقد ظل حالهم منذ عدة سنوات ، وعددهم فى تناقص لافى ازدياد ، والمهم أن هذا الطراز من الشيوعيين أصبحوا يعارضون نظرية ماركس فى كثير من أصولها وقواعدها بعد أن أصبحوا مجرد حزب سياسى يسعى للوصول إلى النفوذ والسلطة ، ويستطيع أى مراقب أن يرى أن هذه الأحزاب الشيوعية قد أصبحت الآن أبعد عن الحكم مما كانت عليه منذ أعوام وأعوام بعد أن أثبتت التجربة ماأثبتت » .

وبالفعل فإن العقد الماضى أثبت رسوخ هذا الاتجاه واستقراره ، فالبنسبة لهذين الحزبين وهما أكبر حزبين شيوعيين فى أوروبا الغربية نجد الحزب الشيوعى الإيطالى عاجزا عن الوصول للسلطة بل ويحقق خسائر انتخابية رغم الأبواب التى فتحها أمام الجماهير الكاثوليكية ورجال

الدين الكاثوليك فى صفوفه . أما الحزب الفرنسى فقد أعرب عن تهافت تمايزه بائتلافه الأخير مع الحزب الاشتراكى الفرنسى وموافقته على غزو تشاد وفقاً لأساليب تقسيم النفوذ الاستعمارية القديمة . وحيث أصبح خلافه مع الحزب الاشتراكى مجرد خلاف حول عدد الشركات المؤممة ! وقد خرج من الائتلاف عندما أصبح يدرك أنه يخسر منه أكثر مما يكسب ، خاصة أن الخط البيانى لنتائجه الانتخابية فى هبوط مستمر .

الدولة لا الطبقية:

وفيما يتعلق بمقولة ديكتاتورية البروليتاريا أضافت التجارب مزيداً من الحجج والبراهين ضدها ، ولعل تجربة بولنده المثال الصارخ على ذلك ، حيث وجدنا العمال عن بكرة أبيهم (والمفروض أنهم الطبقة الحاكمة !!) يثورون على الدولة وعلى الحزب الشيوعى ، الذى لم يجد وسيلة من ضبطهم إلا بالحكم العسكرى بالجنرالات والذى مازال مستمراً حتى الآن ، وكبديل عن تدخل سوفيتى سافر يعيد مأساة تشيكوسلوفاكيا (١٩٦٨) والمجر (١٩٥٦) عندما حسمت الدبابات السوفيتية الحوار مع الطبقة العاملة (الحاكمة !) فى هذين البلدين .

الحوافز الذاتية والربح :

ومن الملاحظات الهامة التى أشار إليها الكتاب حول « الحوافز الذاتية والربح » والمأزق الذى يعانى منه النظام الاقتصادى السوفيتى من جراء الشمولية شبه الكاملة للملكية العامة ، ففى هذا المجال اتضح بصورة أكثر جلاء مدى إدراك القادة السوفيت لهذه المشكلة بحيث أصبحت

على رأس جدول أعمال الرؤساء الثلاثة المتعاقبين : اندروبوف ، تشرينينكو ، جورباتشوف . حيث بدأ تنفيذ سياسة تمليك قطع أرض صغيرة للفلاحين ، وبحث وسائل جديدة للحوافز على المستوى الفردى وعلى مستوى المؤسسة الإنتاجية . حيث يتبين أن الوصول إلى حلول جذرية فى هذا الصدد لابد أن يقترن باختراق الحواجز الأيديولوجية ، واختراق فكرة أن الملكية الخاصة ظاهرة استغلالية بطبيعتها ، وبالضرورة .

أما فى التجارب الاشتراكية الأخرى وبلا استثناء فإنها فى وضع أفضل فى هذه الزاوية حيث إنها لم تقطع الشوط الذى قطعه الاتحاد السوفيتى فى تصفية الملكية الخاصة ، وبالتالى فإنها تحتفظ بالنطاق الحالى للملكية الخاصة فى قطاعات زراعية وصناعية وتجارية ، بل وتزيد أحيانا من هذا النطاق كما هو الحال فى المجر والصين وبولنده .

الحياة الإنسانية :

يقول أحمد حسين فى ختام المخطوط : « إن الحياة الإنسانية هى الحياة الإنسانية منذ كان الإنسان إنساناً ، وستبقى كذلك إلى ماشاء الله قياساً على الماضى ، ومن العبث أن يتصور متصور أن هناك وضعاً مستقراً يحقق للإنسان الراحة والسعادة فالأمور نسبية ... إلخ » .

وبعد سبعين عاماً من تصفية البرجوازية ، والملكية الخاصة ، فإن المجتمع السوفيتى يواجه نفس المشكلات التى واجهتها البشرية عبر كافة العصور والعهود : سباق فى المجال الدولى حول النفوذ والسيطرة . وفى الداخل مشكلات التعبير الديمقراطى ، مشكلات التفاوت الاجتماعى ،

مشكلات الانحلال الأخلاقى والصراع بين الخير والشر ، وبحيث أصبحت مهمة كل رئيس جديد بعد بريجنيف أن يعلن وينفذ بالفعل حملة تطهير واسعة النطاق فى أجهزة الدولة والحزب ، ليس على أساس خلافات سياسية أو أيديولوجية ولكن على أساس الفساد الشخصى والإدارى والاختلاسات ، وتجميع الأموال بالباطل ... إلخ من الأنباء التى تملأ الصحف السوفيتية .

ولابد لأى ماركسى عاقل أن يراجع مقولة أن الملكية هى أساس الشرور ، أو أن الأوضاع الاقتصادية هى الأساس لما يعانيه البشر من مشكلات وويلات . فها هى أجيال بأكملها نشأت لا تعلم شيئاً عن البرجوازية أو الملكية الخاصة ، ولكنها تعيد نفس الكرة التى عاشتها البشرية ، ولم تقدم نموذجاً فريداً للإنسان ، ولكنها ولدت نفس الإنسان الذى عرفناه عبر التاريخ بخيره وشره بل وضعته فى شروط أسوأ .

إن نظرة فاحصة للمجتمع السوفيتى ، توضح أن هدف المجتمع الرسمى ، هو زيادة الإنتاج ، وأن الهدف الفعلى لأفراد الشعب هو المزيد من الاستهلاك وقد وضعوا نصب أعينهم النموذج الاستهلاكى الغربى والأمريكى بشكل خاص ، أى أن التجربة السوفيتية ، لم تفلت من إطار نموذج الحضارة الغربية ، الذى ندرك أن بلادنا لن تنهض إلا فى إطار رفضه ، وتقديم النموذج الحضارى الإسلامى الإنسانى العريق .

* * *

هذه بعض الأمثلة التى أردت الإشارة إليها لتأكيد أن الخط

الأساسى الذى ورد فى هذا المخطوط جاءت السنون السبع عشرة الماضية لتزيده تأكيداً .

وأخيراً . فإننا نقدم هذا المخطوط إلى الشباب المصرى والعربى وهو فى مقتبل حياته واهتماماته الفكرية ؛ لينير طريقه فى الاختيار وليتجاوز ماوقع فيه الجيل الماضى من الانقسام الحاد بين أصحاب الثقافة الإسلامية ، وأصحاب الثقافة الغربية ، وما أدى إليه هذا الانقسام من الأوضاع المتردية لأمتنا العربية الإسلامية ، التى ورثناها ، وليس أمامنا من سبيل إلا إصلاحها وتجاوزها ، أملاً فى المستقبل الذى لابد — وبإذن الله تعالى — أن يكون مشرقاً وباعثاً لكل الآمال الضائعة ، خاصة وأن جماهير شعبنا قد أعلنت بوضوح — لا نزيد عليه — انحيازها للحل الإسلامى .

مجدى أحمد حسين

٨ / ٩ / ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب ، جعلت من برنامجي قبل مرضى ، أن أتوج به أعمالى ورحت أجمع المراجع فى أناة وصبر ، وفى غير عجلة ، لأنى كنت أعرف أن الزمن هو أكبر المراجع على الإطلاق ، وانتظار سنة جديدة على سير التجربة ، أبرك من ألف مرجع ، والآن وقد داهمنى المرض ، وشاءت إرادة الله أن أظل على قيد الحياة ، فإنى أعود لأمسك بالقلم ، وأكتب ماكنت معتزما أن أكتبه ، والفارق الوحيد بين ما أكتبه الآن ، وماكنت معتزما كتابته قبل مرضى ، هو أننى لا أحشد هذا الكتاب بالنقول عن الكتب ، ومن حسن الحظ أن الأقوال الماركسية أصبحت معروفة ومشهورة ، وأن التجارب الإنسانية ، أصبحت من الكثرة والوفرة بحيث أصبحت الإشارة تكفى لهذه الحقائق المعترف بها .

والتصدى لماركس ضرورة إنسانية عظمى ، فعلى الرغم من أن الزمن قد أثبت بطلان كل كلمة نطق بها ماركس ، وعلى الرغم من أن أشد المؤمنين بتعاليم ماركس مثل لينين وماوتس تونج ، كانوا هم الذين أثبتوا بطلان هذه التعاليم ، فإن جميع الشيوعيين فى العالم مازالوا يتخذون من ماركس نبيا ، ومن كتابه عن رأس المال قرآناً أو إنجيلا ، ويعتبرون تعاليمه دينا ، وإذا جاز هذا فى القرن التاسع عشر فإنه لم يعد يجوز فى

نهاية القرن العشرين فضلا عن القرن الواحد والعشرين ، بعد أن أثبتت التجربة بطلان كل قول قال به ماركس .

وأريد أن أبادر فى هذه المقدمة لكى نثبت هذه الأقوال المشهورة والتعاليم ، لنتعقبها ، قولا قولا ، ونظرية نظرية ، ونرى ما الذى أثبتته الأيام والتجربة .

النقط الرئيسية فى التعاليم الماركسية :

ـــ المادية الجدلية .
ـــ المادية التاريخية .
ـــ الوحدة الطبقية ، وصراع الطبقات .
ـــ عدم إمكان تحقيق الاشتراكية فى بلد واحد .
ـــ تهيؤ أوربا الغربية للثورة الشيوعية .
ـــ بطلان الحافز الفردى .
ـــ طبقة البروليتاريا هى التى ستقوم بالثورة .
ـــ حتمية الأزمات الاقتصادية فى المجتمع الرأسمالى .
ـــ نظرية العمل ، وفائض القيمة .
ـــ المجتمع الشيوعى اللاطبقى هو خاتمة المطاف .

وأريد بداءة ذى بدء ، أن أسجل أننى لا أنكر ، ولا أستطيع أن أنكر ، كما لا يستطيع أى إنسان آخر أن ينكر الأثر العظيم الذى أحدثه ماركس بنظريته ، وحسبه أن كان المعلم لرجلين عظيمين فى بلديهما ، تأثرا بتعاليمه وأحدثا فى بلديهما أعظم انقلاب فى ظل هذه

التعاليم وأعنى بالرجلين ، لينين فى روسيا ، وماوتسى تونج فى الصين ، وربما كان ماوتسى تونج ، من لا يزال يلوك اسم ماركس والماركسية بعد أن أصبحت فى حقيقتها ماوتسوتونجية ، كما أصبحت على يد لينين لينينية ، وأصبحت الشيوعية الحديثة تسمى الماركسية اللينينة بعد أن تطورت على يد لينين ، ولم تجد تعاليم ماركس من ينقضها من أساسها سوى هذين الرجلين ، كما سنرى ، كما أن تأثيره العام هو ما غرسه فى نفس الطبقة العاملة من الثقة بالنفس ، والاعتزاز بالعمل والكدح وهو تأثير قد كاد أن يختفى فى القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر حيث طحنت الرأسمالية فى أوربا الطبقة الكادحة طحناً ، بعد أن كانت روح التدين ، قد خلت منها النفوس ، ولا بديل لروح التعاطف الإنسانى ، والتعاون فى أخوة ومحبة ، كما تنادى تعاليم الأديان ، إلا التعاليم الماركسية بكل ما تفيض به من دعوة للصراع الدموى بين الطبقات .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة ثانية

مؤلف هذا الكتاب عاجز مشلول ينتظر ساعة نهايته ، أى أنه ليس سياسياً ولا أطماع له فى شيء ، كما أنه دعا فى يوم من الأيام إلى الاشتراكية ورأس حزبا اشتراكيا ، ولو أنه كان شديد الحرص على أن تكون اشتراكيته مباينة كل المباينة لاشتراكية ماركس فألف فى حينه كتابا أسماه « الاشتراكية التى ندعو إليها » وقد رد كل ماكان يدعو إليه من عدالة اجتماعية إلى الدين والتقاليد ، ولكنه بحكم الدعوة إلى الاشتراكية ، قد طالع ودرس الكثير مما كتب عن الاشتراكية العلمية والماركسية ، أو أنه لايمكن أن يتهم بالعداء لما يجهل .

كما أن المؤلف عاش طول عمره مجاهدا فى سبيل حرية وطنه وحرية الآخرين فجعله ذلك بطبيعته فى غير معسكر من يسمونهم « الإمبرياليين » .

وفى محنة العرب الأخيرة وهو الذى عاش طول عمره يكافح من أجل عروبة فلسطين فهو لا يمكن إلا أن يكون متعاطفا مع الاتحاد السوفيتى الذى وقف إلى جانب العرب أيا كانت دوافعه لهذا الموقف .

فكل حديث عن محاولة تجريح الدوافع لكتابة هذا الكتاب مردود على صاحبه ، وبقى أن أشير إلى هذه الدوافع :

أن هذا الكتاب بمثابة وصية للأجيال القادمة ، وهو تبرئة لذمتى أمام الحق والإنسانية والله أولا وقبل كل شيء ، فقد عشت مقتبل حياتى وأنا أرنو لمجتمع يسوده العدل والحرية والقانون ، ثم عشت حتى رأيت جميع المثل التى حاربت من أجلها وحارب من قبلى كل الدعاة والمصلحين فى سبيلها ، وحيث كانت الدنيا المتحضرة فى مستهل شبابى تقوم وتقعد لمقتل إنسان أو سجنه فضلا عن تعذيبه بدون وجه حق ، وعشت حتى رأيت الدماء تراق جهارا نهارا ، وكل صنوف البربرية والوحشية ترتكب باسم التقدم والاشتراكية ثم تسربت هذه الأساليب إلى المعسكر المعادى للشيوعية .

وهكذا تحولت الإنسانية إلى العيش فى حياة تعسة بائسة إما باسم العمل من أجل انتصار الشيوعية ، وإما باسم العمل لإيقاف زحف الشيوعية كما تمثله الحرب الفيتنامية التى هى عار على البشرية كلها بشقيها ، شرقها وغربها ، أو شيوعيها ورأسماليها على السواء ، إذ تحول البشر المنكود إلى حقل تجارب ، وإذ أغادر الدنيا قرير العين فلأنى سأعفى من سماع مايحل بالشعب البائس ، شعب فيتنام .

وعندى أن ماركس ونجاح نظريته بعض الوقت هو السر فى هذه اللعنة التى حلت بالبشرية والتى جعلت رجلا كهتلر يرتكب من الفظائع مايتضاءل إلى جواره كل ماسمعت به البشرية من فظائع فى كل

تاريخها ، والمهم أنه فعل باسم التقدم وخير البشرية ، وهى البدعة الماركسية بدأ يستعملها أعداء الماركسية بعد أن أصبحت عملة متداولة فى السوق ، وهكذا أصبح باستطاعة أى ديكتاتور أو مستبد أن يضع شعار الماركسية فوق رأسه ولا عليه أن يرتكب مايشاء من الجرائم باسم التقدم والصراع الطبقى ، والمهم أنه حتى المعسكر المضاد قد استباح مثل هذه الوسائل .

هذه هى تجربتى الخاصة جعلتنى أكتب هذا الكتيب ، للعظة والتاريخ ، ولأبرىء ذمتى ، وأقرر ماشهدت بعينى .

والله ولى التوفيق .

كارل ماركس

ولد كارل ماركس من أبوين يهوديين عام ١٨١٨ ، ومات عام ١٨٨٢ فى انجلترا ، فهو من أبناء القرن التاسع عشر وراضع ثقافته وتعاليمه ومبادئه ، يقول عنه لينين : إنه أخذ أجمل مافى فلسفة القرن التاسع عشر كما يمثلها هيجل الألمانى ، وأجمل مافى الاقتصاد الانجليزى ، وأجمل مافى الاشتراكية الفرنسية ، وبمعنى أصح أنه من الممكن تتبع ثقافة ماركس ومصادر أفكاره ، وأن تحدد بالضبط الجديد فى أقواله وما انفرد به عن سائر من تلقى عنهم ، وقد ولد كارل ماركس فى ألمانيا لوالدين يهوديين كما قدمنا إلا أن والده اعتنق البروتستانتية (أى الدين المسيحى) وقد كان لذلك أعظم الأثر فى حياة ماركس فلا عجب أن أصبح عدوا للأديان ، وقد أمضى فى إنجلترا ، القسم الأخير من حياته ، فى شظف وفقر مدقع وهو الأستاذ فى الفلسفة حتى إن أطفاله ماتوا فى صغرهم من شدة بؤسه ، ولكن الذى لاشك فيه أنه لا علاقة بين البؤس وموت الأطفال .

وكيفما كان الأمر ، فإن باستطاعتنا أن ندرك سر المرارة التى كان يعانيها ماركس والتى انعكست على آرائه وتعاليمه ، فدعا إلى الصراع الطبقى الدموى وأنكر أن يكون هناك شيء اسمه شفقة أو رحمة أو

إنسانية ، وإنما هى نواميس مادية تتصارع ، وسخر من كل الدعوات الاشتراكية الحالمة (الطوباوية) كما سماها وسمى اشتراكيته بالعلمية ليتطهر من دنس الاشتراكية الخيالية والتى صدرت عن نزعات دينية أو إنسانية ، فليس هناك إلا اشتراكية علمية ، تقوم على الصراع وتغلب طبقة على أخرى وقد آن الأوان لانتصار الطبقة العمالية (البروليتاريا) وأن تستغل انتصارها فى إقامة ما أسماه ديكتاتورية البروليتاريا ، التى تعمل بآخر مافى وسعها للقضاء على الطبقة الرأسمالية (البورجوازية) والقضاء على كل مؤسساتها ، كالعائلة ، والدولة والنظم البرلمانية والأديان ، وكل ما أثمره ذلك من قوانين ونظم وقيم خلقية وأدبية ، فذلك كله هو من خلق البورجوازية ، لتتوصل من خلاله لاستغلال الطبقة العاملة .

وقد جاء كارل ماركس بعدة أفكار ومبادىء سواء فى الفلسفة ، أو فى الاجتماع ، أو فى الاقتصاد ، وسنرى كيف أن مائة عام فقط قد أثبتت بطلان كل ماقال به فى شتى الميادين ، وأن هؤلاء الذين لا يزالون يتحدثون عن مبادىء ماركس ، إنما يتشبثون بآراء قديمة رجعية ، قد عفا عليها الزمن ، وأثبت بطلان كل كلمة فيها .

المادية الجدلية والتاريخية

تقوم كل تعاليم ماركس الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية ، على أساس ما أسماه بالمادية الجدلية (الديالكتيكية) تمييزا لها عما قال به بعض فلاسفة عصر الماديين من مادية ميكانيكية مادية (فورباخ) ، ونحن ندع مناقشة هذه المادية الجدلية فى آخر ختام بحثنا بعد أن نثبت بطلان كل ما ادعاه من أفكار شادها على هذا الأساس ، وأول هذه المبادىء ماأسماه المادية التاريخية التى يجرى التطور التاريخى على أساسها ، ويرجع ماركس كل عوامل التطور التاريخى إلى عنصر واحد مجرد ، وهو وسائل الإنتاج ، فنوعية هذه الوسائل هى التى تحدد نظام المجتمع وعلاقات البشر بعضهم ببعض وليس هناك — كما أثبت العلم الحديث — ماهو أضر ، وأكثر مدعاة للخطأ من تبسيط الأمور فى أى شأن من الشئون وردها إلى سبب واحد . إن النظام الطبيعى يقوم على التركيب ، وليس فى هذا الكون كله ظاهرة واحدة يمكن عزلها عن بقية الظواهر ، فالظواهر متداخلة مترابطة ، حتى فى الأمور المادية البحتة ، ثبت بما لايدع مجالا للشك ، أنه لايوجد فى الطبيعة أى عنصر لا يكون مختلطا بعناصر أخرى ، وقد تعذر عمليا ، تنقية أى عنصر من بقية العناصر الأخرى ، وعندما يقال إن هذا الشيء يتألف من كذا وكذا

كالهواء مثلا (أكسجين ونتروجين) فإن هذا لا يعنى شيئا إلا أن الجزء الأكبر يتألف من هذين العنصرين فى الدرجة الأولى ، وإلا فإنه إلى جوار هذين العنصرين توجد عشرات من العناصر الأخرى .

ففى الطبيعة المادية البحتة ـــ مادمنا نتكلم فى حدود المادة ـــ لا يمكن القول بوجود أى عنصر منفصل عن بقية العناصر ، وغاية مايقال إن عنصرا معينا هو العنصر الغالب على شيء ما ، وليس يعرف بالضبط ما الذى يحدد خصائص أى شيء أهى العناصر الغالبة ، أم العناصر الثانوية ، فإذا كان هذا هو آخر مايقوله العلم بعد أن قطع ما قطع فى المسائل المتعلقة بالمادة المجردة كالحديد أو النحاس ، أو الهواء والماء ، فكم بالأحرى يكون القول فى الروابط الإنسانية والعلاقات الاجتماعية . قد يكون كلام كارل ماركس أكثر صوابا وأقل احتمالا للخطأ لو أنه قال : إن وسائل الإنتاج وملكيتها تشكل عنصرا هاما وخطيرا فى تحديد العلاقات الاجتماعية ، أما الجزم والقطع بأن هذا هو الأساس الوحيد الذى تقوم عليه الحياة الإنسانية ، فأمر إلى السذاجة أقرب ، فضلا عن أن العلم ينكره ويدحضه ، والتجربة أثبتت إفلاسه .

لقد اختار كارل ماركس بعض وقائع من التاريخ لتدعيم نظريته وكانت ظروف الحياة فى أوربا المعاصرة وتاريخها القريب يسعفه لتأييد وجهة نظره التحكمية ، ولكنه لو مد بصره إلى العالم كله وبخاصة فى آسيا وأفريقيا لما قال ماقال ، وهو لم يعبأ ولم يحاول أن يفسر لنا الحركات الكبرى فى التاريخ والتى لم تكن فى قليل أو كثير ، إلا تحقيقا لطموح

أفراد لا أكثر ولا أقل ، مثل حروب الإسكندر المقدونى فى القديم ، ونابليون فى الحديث ، حيث لاتستطيع نظرية وسائل الإنتاج وملكيتها أن تفسر لنا هذه الحركات ، وإذا كان هذا مدى عجز النظرية فى تفسير حوادث محدودة كحوادث الإسكند ونابليون ، فكم هى بالأحرى أكثر عجزا وإفلاسا فى تفسير الظواهر الكبرى كالدين البوذى وما أحدثه من تأثير فى بيئته والمسيحية فضلا عن الإسلام حيث استطاع جماعة من بدو الصحراء ، استناروا بنور الإسلام وامتلأت قلوبهم إيمانا بحياة أخروية لا تمت إلى هذا العالم على الإطلاق ، أن يقوضوا إمبراطوريتى الفرس والرومان وأن يغيروا مجرى التاريخ ومساره .

إن كارل ماركس لم يكلف نفسه مؤونة التصدى لهذه الأحداث الكبرى ومحاولة معرفة مدى اقترابها أو ابتعادها عما يقول ، فلننظر ماذا قال ، قال بغير تفسير أو تعليل ولكنه مجرد قول : إنه عندما كانت وسائل الإنتاج بدائية ، كان المجتمع يعيش فى حالة شيوع فطرى ، فلما أو وجدت الملكية انقسم العالم أو بالأحرى المجتمع إلى عبيد وسادة ، ثم تطور المجتمع فأصبح يتألف من إقطاعيين وأتباع ، ثم تحول إلى رأسماليين وعمال وتنبأ أنه سيتحول بعد ذلك إلى الاشتراكية فالشيوعية ، أى المجتمع اللاطبقى .

وكارل ماركس فى هذا الذى قال إنما كان يسجل التطور كما سار عنده فى المجتمع الأوربى ، ولم يمد بصره إلى باقى العالم ، ومن هنا وقع فى خطأ التعميم والقول بالحتمية ، فالانتقال من حالة الإقطاع إلى الرأسمالية مثلا يتم بطريقة حتمية لافكاك منها ، كما أن الانتقال من الرأسمالية إلى

الاشتراكية سيتم كذلك بحتمية لافكاك منها ، والأمر فى ذلك عند كارل ماركس يشبه غليان الماء عند درجة مائة وتحول الهواء إلى سائل تحت ضغط معين ، وتأسيسا على ذلك فليس باستطاعة أى مجتمع أن يقفز من الإقطاعية إلى الاشتراكية ، بل لابد أولا من أن يتحول إلى مجتمع رأسمالى وبعد ذلك إلى مجتمع اشتراكى ، وليس قبل ذلك ، وقد كانت هذه هى القضية التى قام حولها النزاع بين لينين ، وبين معاصرين من الماركسيين ، فقد كانت روسيا القيصرية مجتمعاً إقطاعياً ، بكل ما تعنيه الإقطاعية ولذلك فإن الماركسيين الروس كانوا يرون أن تستمر الثورة التى اندلعت فى روسيا ضد القيصرية ، والتى أشعلها الديمقراطيون الأحرار (الليبراليون) تحت قيادة هذه العناصر وأن يبقى الشيوعيون فى منأى عن الحكم وتقلد زمام السلطة ، حتى تتحول روسيا إلى مجتمع رأسمالى تقدمى ، ومن ثم يبدأ دور النضال لتحويله إلى مجتمع اشتراكى ، طبقا لنظرية ماركس .

ولكن لينين (الذى لم يكن من طبقة العمال بطبيعة الحال) أدرك أن ثورة الشعب الروسى كانت فى حقيقتها تمردا ضد الحرب الذى لم يلق الشعب من ورائه إلا النكبات ، كما أن القيصرية كانت قد وصلت إلى حد التعفن حتى استطاع دجال أفاق (راسبوتين) أن يسيطر على القيصر والقيصرة ، وبالتالى على مصير روسيا كلها ، الأمر الذى أفزع الطبقة الحاكمة نفسها ، فتآمر أحد أمراء البيت الحاكم على راسبوتين وقتله ، فنكبات الحرب التى جاءت نتيجة الفساد هى التى أشعلت ثورة فبراير ، التى أطاحت بالقيصرية وجاء الحكام الجدد

يصرون على استمرار الحرب ، بكل مافى الحرب من ويلات ونكبات مل منها الشعب الروسى ، انتهز لينين هذه الفرصة ، ودعـــا باسم الحزب (البلشفى) إلى وضع نهاية سريعة للحرب ، وأضاف إلى ذلك هدفا آخر يحقق به رجوع الفلاحين للأرض ، فجعل من برنامج حزبه إذا تولى السلطة أن يوزع الأرض على صغار الفلاحين ، وهو حل يناقض على خط مستقيم التعاليم الماركسية التى تنادى بإلغاء الملكية ، لا بتوزيعها على أكبر عدد ممكن من الملاك ، ولذلك فقد اضطر ستالين بعد ذلك إلى أن يغرق روسيا فى طوفان من الدم ليبيد هذه الطبقة الجديدة من الملاك (الكولاك) والذين كانوا يقدرون بالملايين ، والمهم أن لينين عندما وصل إلى السلطة ، لم يصل إليها طبقا لنظريات ماركس ، ولم يأت لمجتمعه بحلول ماركسية ، وإنما جاء بحلول من واقع ظروف الحياة الروسية ومطالب الشعب الملحة والعاجلة فى وقت معين ، ولذلك عقد بمجرد استيلائه على السلطة صلحا منفردا مع ألمانيا تنازل بمقتضاه لألمانيا عن كل ماكانت تطمع فى اقتطاعه من أرض روسيا .

ولعله من الأمور ذات المغزى ، أن ألمانيا القيصرية الرأسمالية ، كانت هى التى هربت لينين إلى روسيا ، فقد كان منفيا منها ومبعدا والإجماع منعقد بين الشيوعيين أنفسهم أن عودة لينين فى هذه المرحلة بعد ثورة فبراير ، هى التى غيرت مجرى الأحداث ، ولولا لينين لما قامت ثورة أكتوبر ، فالمسألة كما نرى ليست (كيمياء) كما ادعى ماركس ، وإنما هى كما كانت دائما ، إرادة شخص معين ونجاحه فى حسن تقدير موقف من المواقف .

واللطيف أن الماركسيين يقولون ، إن لينين هو وحده الذى فهم روح النظرية الماركسية فاستطاع أن يحقق هذا الذى حققه ، مع أن الذى حققه لينين كان على خلاف كل ماادعاه ماركس . فعند ماركس أن الثورة الاشتراكية عندما تقوم فسوف تقوم فى إنجلترا أو ألمانيا ، حيث بلغت الرأسمالية أوجها ، ولم يدر فى حسابه أبدا أن الثورة الاشتراكية يمكن أن تقوم فى روسيا التى كانت أكثر دول أوربا تخلفا ، وكانت لاتزال غارقة فى الإقطاعية ، واللطيف مرة أخرى ، أن الماركسيين جريا وراء خزعبلاتهم المادية ، ولكى لايسجلوا إخفاق نبيهم فى التنبؤ قالوا إن الثورة الاشتراكية قامت فى روسيا بالذات لأنها كانت أضعف حلقة فى سلسلة الرأسمالية الأوربية ، أى أنه كما تبحث الغازات فى باطن الأرض عن أضعف نقطة فيها لتنفجر منها ، فكذلك انطلقت الثورة الاشتراكية فى روسيا وليست فى إنجلترا أو ألمانيا ، مع أن التفسير الوحيد لقيام الثورة فى روسيا وليس فى انجلترا ، هو للهزائم المنكرة التى منيت بها روسيا فى الحرب العالمية الأولى ، حيث كان عدد القتلى قد يناهز نصف مليون فى بعض المعارك وحيث كان الجنود يساقون أحيانا إلى ميدان القتال بغير أحذية فى أقدامهم ، ناهيك بفساد الأسلحة وقيام ثورة ضد الحاكم كائنا من كان ، ظاهرة مؤكدة فى كل عصور التاريخ ، والتعلق بكل دعوة جديدة تعد المهزومين بالنصر ، ظاهرة مؤكدة كذلك .

من هم المنادون بالاشتراكية ؟

ولندع تجربة روسيا الآن جانباً ، لنرى ما يحدث الآن من حولنا فى

منحدر القرن العشرين لكى نرى أن الذين ينادون بالاشتراكية هم الشعوب المتخلفة فى أفريقيا وآسيا التى لم يتخط بعضها المرحلة القبلية أى لم يصلوا بعد إلى دور الإقطاع فضلاً عن الرأسمالية ، وأعدى أعداء الشيوعية اليوم ، هم عمال أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ، مع أن دول فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، قد أصبحت دولاً صناعية من الطراز الأول وأصبح العمال فيها على رأس المثقفين ، وقد أدت بهم ثقافتهم هذه بالذات إلى إنكار الشيوعية ، فلا يوجد فى الولايات المتحدة حتى الآن حزب عمالى ، مع أن أمريكا تملك أكثر من نصف صناعات العالم ذلك أن ما غاب عن ذهن ماركس . وهو غارق فى ماديته وكيميائه الاجتماعية . قدرة الإنسان الخلاقة التى لا حد لها وقدرته على التشكل وفق الظروف المتغيرة ، فقد كان الرأسماليون على خلاف ما توقع ماركس وتنبأ ، هم الذين تطوروا ، ووجدوا أن مصلحتهم المحققة هى فى رفع مستوى العامل فكانوا هم الذين بدأوا فى إنقاص ساعات العمل إلى ثمانية فى اليوم ، ثم إلى سبع وست وخمس ، وأسبوع الأربعين ساعة أصبح مطبقا فى البلاد الرأسمالية لا الاشتراكية ، ومستوى معيشة العمال فى البلاد الرأسمالية يفوق أضعافاً مضاعفة مستواهم فى البلاد الاشتراكية ، وهكذا تكشف إفلاس ماركس وهو يتحدث عن استمرار بؤس العامل وأن هذا البؤس سيظل يتزايد إلى أن يحصل الانفجار ، ولكن الذى حدث هو عكس ذلك تماماً ، فالذين يقفون اليوم ضد الشيوعية هم عمال الصناعات الراقية الذين يخشون على أنفسهم من الشيوعية لئلا تسلبهم ما فى أيديهم .

أما كيف انتشرت الأحزاب الشيوعية فى شرق أوربا ، فقد تم ذلك على يد جيوش الاتحاد السوفيتى فى بلاد بولنـــدا ، ورومانيـــا ، وبلغاريا والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا وكان طبيعياً أن تعهد بالسلطة إلى أحزاب شيوعية ، وبعد خمس وعشرين سنة من الحكم الشيوعى ، كان العمال هم الذين أعلنوا الثورة والتمرد على الحكم الشيوعى واضطرت روسيا أن تتدخل بجيوشها ودباباتها لتبقى البـلاد كالمجر وتشيكوسلوفاكيـا فى نعمة النظام الروسى .

« يا أيها العمال فى جميع أنحاء العالم اتحدوا » :

ليس هناك ما يكشف عن إفلاس النظرية الاشتراكية فى سنة ١٩٧١ أكثر من أن نلقى مجرد نظرة على أحوال العالم سنة ١٩٧١ ، لقد ادعى ماركس فى نظرياته أن ليس فى الكون إلا مجرد طبقات تتصار ع ، وأن مصالح كل طبقة فى سائر أنحاء العالم ، هى مصلحة واحدة ، فوطنية أى عامل وقوميته هى فى طبقته ، ولذلك فقد ختم بيانه الشيوعى الشهير بهذه الكلمة المدوية : « يا عمال العالم اتحدوا » ، وعلى أساس هذه الصيحة ، تألفت الدولية الأولى ، وظن أن فجر وحدة العمال قد دنت ، ولكن الحرب العالمية الأولى اشتعلت ووقف عمال الـدول المتحاربة يقتل بعضهم بعضا ، فقيل إن الحكام البرجوازيين هم الذين ساقوا العمال إلى المجازر ، ولكن الحرب العالمية الثانية اشتعلت كذلك ، وراح العمال والفلاحون من كلا الجانبين المتحاربين ، يقتل بعضهم بعضا ، وفى هذه المرة كانت روسيا السوفيتية أحد العوامل التى

أشعلت نار الحرب ، فقد اتفق ستالين رئيس روسيا مع هتلر على اقتسام بولندا ، تماماً كما كان يفعل القياصرة من قبل ، وهكذا دخلت جيوش روسيا ، جيوش العمال والفلاحين لتطعن بولندا الطعنة القاتلة وتجعلها تجثو على قدمى هتلر الطاغية على خلاف كل تحليل أو تفكير ماركس ، بل على الضد من هذا التفكير والرجوع إلى الوراء ، إلى الوراء جداً ، أى إلى سياسة القياصرة الرامية إلى التوسع !

ولندع ذلك كله إلى الوقت الحاضر — كما قدمت — لنرى الانقسام الحاد بين العالم الشيوعى إزاء الوحدة التى أصبحت تسود العالم الرأسمالى والتى أصبحت تجر وراءها — على ما تقول الصين — العالم الروسى نفسه فكيف حدث هذا ؟

لقد أصبحت الصين شيوعية أى أن حكومتها اشتراكية ماركسية ، وذلك بفضل ماوتسى تونج ، وسنعود إلى صيرورة الصين الرسمية شيوعية ، فقد حدث هذا على خلاف تعاليم ماركس — كما سنرى — أما الآن فنحن نتحدث عن الفصل الأخير كما هو مشاهد ، وواقع هذه الأيام بعد أن أصبح العداء مستحكماً بين روسيا والصين ، وينعقد وقت كتابتى هذه السطور مؤتمر شيوعى سوفيتى ، يتحدث فيه برجنيف سكرتير الحزب الشيوعى عن أمله فى تحسن العلاقات بين موسكو وبكين نظراً لسوء العلاقات فى الوقت الحاضر ، حيث رفضت بكين أن تحضر المؤتمر وتتهم حكام روسيا بأنهم منحرفون وأنهم أصبحوا حلفاء الإمبريالية الأمريكية ضد الصين ، وقد بدأ الخلاف بين روسيا والصين بمجرد أن أصبحت الصين من الناحية الرسمية شيوعية ، إذ كان

يتعين على روسيا طبقاً لنظريات ماركس ، أن تنظر لوحدة الطبقة العاملة فى الصين وفى روسيا فتعمل على رفع مستوى الطبقات العاملة فى الصين وفى روسيا فتعمل على رفع مستوى الطبقات العاملة فى الصين ، وبالفعل شرعت روسيا فى تصنيع الصين ، ومدها بالخبراء والآلات ولكن روسيا سرعان ما اكتشفت أمرين :

الأول: أن الصين بئر بلا قاع ومهما أنفقت فستظل الصين تبلع وتبلع ، وذلك على حساب الطبقة العاملة الروسية ، فتوقفت روسيا عن أن تمد الصين بالمصانع والآلات .

الأمر الثانى : الذى تكشف لروسيا هو خوفها من أن تبتلعها الصين ذات السبعمائة مليون إذا هى تصنعت وأصبحت قوية ، فإذا بروسيا تسحب مرة واحدة جميع خبرائها من المصانع الصينية ، وتحبس كل علومها عن الذرة عن الصين ، وحدوث ذلك فجأة وبلا سابق إنذار كاد يعرض الصين لكارثة ، فلا عجب إن اشتعل الخلاف بين الدولتين كأشد ما كان فى يوم من الأيام ، وبدأ التقارب يتم بين أمريكا قمة الرأسمالية وبين الاتحاد السوفيتى على حساب العلاقة بين روسيا والصين ، وكان من أطرف ما سمعناه أن روسيا تخشى على نفسها أن تستيقظ ذات صباح لترى ملايين من الشعب الصينى يزحفون على أرضها الخالية من السكان فى سيبريا ، لا بالمدافع والبنادق ولكن بالمكاتل (المقاطف) والمساحل والمناجل ، وهم يقولون : نحن إخوان وقد جئنا لنزرع ونعمر هذه الأرض القاحلة الماحلة (سيبريا) .

ولدفع هذا الخطر افتعل الاتحاد السوفيتى هذه القطيعة بينه وبين الصين ولقد طالعت أخيراً ما هو أغرب وأعجب وهو أن روسيا فتحت أبواب سيبريا للاستثمارات اليابانية بحيث أصبحت اليابان ــ الدولة الرأسمالية وعدوة روسيا حتى وقت قريب ــ تستثمر ستمائة مليون دولار فى سيبريا ، وذلك لتكون اليابان عوناً لها ضد الخطر الصينى وإذا كان كل هذا يبدو مضحكاً من ناحية روسيا الشيوعية ، فإن الصين من ناحيتها ، أصبحت تطالب روسيا بأراضٍ تقول إن قياصرة الروس اغتصبوها فى قديم الزمان من الصين ، وقد وصل الأمر فى وقت ما أن كلاً من الدولتين حشدتا جيوشهما فى مواجهة بعضهما البعض ، والحرب الدعائية الآن على أشدها بين الدولتين ويتسامح الاتحاد السوفيتى مع أى دولة صديقة إذا هى حسنت علاقتها مع أمريكا ، ولكنها لا تتسامح أبداً إذا حسنت علاقتها مع الصين ، وعلى كل بلد أن يختار بين الصين أو الاتحاد السوفيتى .

والذى يعنينا من ذلك كله عدم صحة قول ماركس من وحدة الطبقة العاملة ، وأن لا وطنية ولا مصالح قومية وإنما هى مصلحة طبقية ، فها نحن أولاً نشهد الاتحاد السوفيتى بعد نصف قرن من الاشتراكية ، يتصرف مع دولة اشتراكية أخرى نفس التصرفات الوطنية والقومية الممعنة فى القيصرية .

أما عن الانقسام بين صفوف المعتنقين للماركسية حيث يتهم كل فريق منهما الآخر بالانحراف ، فحقاً حدث ذلك دائماً بالنسبة

لأى عقيدة من العقائد فالنزاع بين البروتستانت والكاثوليك مشهور ومعروف ، وكذلك الخلاف بين المسلمين وانقسامهم إلى سنة وشيعة ، والمهم عندنا أن البشر هم البشر ، وليس صحيحاً أن الأمور تجرى بينهم طبقاً لعلاقات الإنتاج وإنما تخضع هذه العلاقات لعديد من العوامل وأى مجموعة من البشر فى مكان ما تتناقض مصالحها مع مجموعة أخرى شيوعيين كانوا أو غير شيوعيين ، ونسجل على كارل ماركس خطأ أقواله وحساباته فى هذه الناحية .

الفلاحون وليس البروليتاريا :

ولا ندع موضوع الصين ، دون أن نشير إلى حقيقة أخرى زائفة من حقائق كارل ماركس التى راح يبشر بها حتى ارتفع بها إلى مستوى العقائد ، وخضب أرض الكرة الأرضية بالدم ثمناً لغرسها فى النفوس :

البروليتاريا :

أما هذه الحقيقة ، أو بالأحرى القول الذى قال به كارل ماركس ، فهو أن الثورة الاشتراكية لا تقوم ولا يمكن أن تقوم إلا فى مجتمع مغرق فى الرأسمالية لأنه فى ظل الرأسمالية فقط تقوم مئات المصانع وبالتالى عشرات الألوف ومئاتهم من العمال الذين يكونون هم الجيش الذى يدمر الرأسمالية والرأسماليين ، ولم يلق كارل ماركس باله أبداً للفلاحين وطالما صرح فى أقواله وكتاباته أن الفلاحين لحبهم للملكية فهم احتياطى للرجعيين ، وحث العمال على أن يبذلوا وسعهم للتحالف مع جموع الفقراء منهم ، وقد رأينا كيف أن لينين شق طريقه

فى روسيا عن طريق توزيع الأرض على صغار الفلاحين .

ولكن الذى لم يتصوره كارل ماركس ولا لينين وحلفاؤه من بعده أن الفلاحين يمكن أن يكونوا هم نواة النظام الاشتراكى ، وأن الفلاحين هم الذين سيدخلون المدن ويحرروا عمالها من الرأسمالية ، ولكن هذا هو الذى حدث فى الصين حيث بدأت الحركة الشيوعية بين صفوف الفلاحين بزعامة ماوتسى تونج ، وظلت كامنة محصورة حتى وتتها ظروف معينة فانتصرت واستولت على مقاليد السلطة ، وكان الذى أعانها على ذلك فى الواقع هم الأمريكان (الرأسماليون) وليس الروس (الاشتراكيون) فقد غزت اليابان الصين واستولت على أهم أجزائها ، فراح الصينيون يقاومونها فى الداخل ، وحدث أن اعتدت اليابان على أمريكا واشتبكت الدولتان فى حرب طاحنة فأسرعت أمريكا تمد الشعب الصينى بكل مايساعده على القتال ، وأمدت الشيوعيين فيمن أمدت بالسلاح والمال ، وقرب نهاية الحرب كان الشيوعيون تحت زعامة ماوتسى تونج قد أصبحوا أكبر قوة فى الصين ، فقد كان ماوتسى تونج يوزع الأرض على الفلاحين فى كل مكان يدخل إليه ، فالتفت حوله قلوب الملايين من الفلاحين ، وحاولت أمريكا أن توقف هذا المد ، فوقفت إلى جوار كاى شيك ، ولكن الأوان كان قد فات ، واستولى ماوتسى تونج على السلطة ودخلت جيوش الفلاحين إلى شنغهاى وغيرها من مدن الصين الصناعية الكبرى لتحرر البروليتاريا الصناعية ، ومن اللطيف أن زعماء الشيوعيين الصينيين الأوائل تمسكا منهم بالتعاليم الماركسية لم يتصوروا أبدا أن تبدأ الشيوعية فى صفوف الفلاحين

فانقسموا على ماوتسى تونج ، وذهبوا إلى شنغهاى ليبدأوا منها الثورة الاشتراكية ، ولم ينظر ستالين إلى شيوعيى الصين نظرة جديدة أبدا ، — وكان حليفا لكاى شيك ضدهم — إلا بعد أن انتصر ماوتسى تونج فاضطر ستالين للاعتراف به على مضض ، وقد رأينا كيف عاد فسحب خبراءه ومعوناته عن الصين .

والذى يعنينا أن الأمور قد سارت فى الصين ، كما سارت فى كل عصور التاريخ فى الاتجاه الذى يرسمه رجل موهوب يصل إلى السلطة عن أى طريق وبمساعدة عناصر متناقضة حتى إذا وصل إلى السلطة نظم الدولة طبقا لمعتقداته أو بالأحرى طبقا لمصلحته .

وهكذا تكون حسابات ماركس قد أخفقت بالجملة ، فحيث يقول إن الثورة الاشتراكية ستقوم فى أوربا الغربية ، فقد قامت فى روسيا الدولة المتخلفة نسبياً ، وحيث يقول إن الثورة الاشتراكية لا يقوم بها إلا العمال فقد قام بها الفلاحون أو بالأحرى بواسطة الفلاحين ، وحيث يقول إن ازدياد الوعى الطبقى لدى العمال سيؤدى بهم إلى تدمير الرأسمالية أصبحت الرأسمالية لا تجد لها موئلاً وحصناً إلا حيث وصلت ثقافة العمال إلى الذروة ، وأصبحت الدعوة إلى الاشتراكية باعتبارها الجنة الموعودة ، لا تروج إلا وسط السذج والدهماء الذين لا يقرأون ولا يتابعون ما يجرى حولهم .

عدم إمكان قيام الاشتراكية فى بلد واحد:

كان أحد مفاهيم النظرية الماركسية أن الثورة الاشتراكية لا يمكن

أن تقوم فى بلد واحد ، وقد كان هذا المفهوم أحد محاور الخلاف بين لينين ومعاصريه من الماركسية ، وازداد الخلاف حدة بعد موت لينين ، بين ستالين وتروتسكى ، فحيث كان الأخير (تروتسكى) يصر على أن واجب الاتحاد السوفييتى الأول أن يشعل نار الثورة الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم حتى يمكن أن تكون روسيا اشتراكية بالفعل فقد خالفه ستالين فى ذلك ، وأغلق على روسيا الأبواب وعزلها عن العالم وراح يعمل على تحويلها إلى الاشتراكية ، وسوف نتحدث عن الآلام التى عاناها الشعب الروسى أيام ستالين ، عندما نتعرض للكلام عن سلطة الدولة ، وحسبنا الآن أن نسجل إما أن الاتحاد السوفييتى ليس دولة اشتراكية ، وإما أن نقرر أنها دولة اشتراكية ، ويكون القول بأن الاشتراكية لاتقوم فى بلد واحد هو غير صحيح ، وهو القول الحق .

ثراء الطبقة العاملة فى ظل الرأسمالية :

صور ماركس بؤس الطبقة العاملة فى أيامه ، وكذلك فعل صاحبه إنجلز ، وقد شاد ماركس كل فلسفته ونظرياته على هذا البؤس ، وتنبأ أنه سيظل فى ازدياد ، وقد جرى ماركس فى ذلك وراء نظريته المادية الساذجة ولم يطف بخياله ــ وهذا مايجب أن يؤخذ عليه ــ أن الرأسماليين أنفسهم سوف يغيرون من نظرتهم إلى العمال أو بالأحرى سوف يضطرهم التطور الآلى العظيم ، وزيادة الإنتاج إلى تغير مفاهيمهم ، لقد أصر ماركس على أفكاره حتى آخر لحظة فى حياته ، إذ بسط هذه الأقوال فى آخر ماكتب وهو (رأس المال) بل إنه بنى نظريته وبناءه الاقتصادى كله على ماأسماه بفائض القيمة وهو ماسوف

نتعرض له ، ولم يدخل كارل ماركس فى حسابه ماسوف يحصل من تطورات علمية ستقلب الأمور رأسا على عقب ، فإن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) لم تكد تضع أوزارها حتى كانت الدول المتحاربة تضع فيما بينها ميثاقا لتحقيق رفاهية العمال . فأنشأت هيئة العمل الدولية التى جعلت دستورها العمل على حماية العمال والدفاع عن حقوقهم ، ورعاية مصالحهم على أساس أن ذلك يحقق السلام العالمى ، وقد حققت هيئة العمل الدولية الشيء الكثير ، وهى فى كل يوم تتابع عملها لتحسين أحوال العمال .

رب قائل يقول : إن الدول فعلت ذلك ، خوفاً من انتشار الشيوعية ، ونحن لانمارى فى ذلك ، وهو مااعترفنا به لماركس ولكنا فى صدد الكلام عن نظرياته ، فحيث كان يتصور أن الأمور لايمكن إلا أن تتخذ مسارا معينا ، فإذا بها تتخذ مسارا آخر ، فلا تعود الدولة كما زعم ماركس أنها من صنع البورجوازية لقهر الطبقة العاملة واستغلالها ، بل تقف الدولة لرعاية الأغلبية من أبنائها وهم الفلاحون والعمال وأصبحت النقابات العمالية نفسها قوة جبارة ترهب الرأسمالية ، وأصبحت النقابات تضمها الاتحادات التى تصل ميزانياتها إلى عشرات الملايين من الجنيهات ، بل إلى مئات الملايين ، وذلك فى أغنى الدول الرأسمالية وهى الولايات المتحدة الأمريكية .

ويتحدث ماركس عن العامل الضعيف البائس ، ولم يتخيل ولم يطف له فى خيال أن رجلا كفورد سيجعل من أهدافه أن يكون بقدرة

أى عامل من عماله أن يحصل على سيارة فورد وهو مالا يقوى على الحصول عليها بعض الأغنياء فى مجتمعات أخرى ، واليوم لا يوجد فى أمريكا الرأسمالية عامل واحد لا يملك سيارة ، ولا يوجد فى بيته كل وسائل الرفاهية الحديثة كالثلاجة والفرن الكهربائيين والراديو والتليفزيون والتليفون حيث لا يكاد العمال فى الاتحاد السوفييتى يجدون مسكنا مستقلا للسكنى فيه ، فلا عجب أن أصبح العمال بالذات فى أمريكا هم أعدى أعداء الشيوعية التى وجدوها فى التطبيق ، تسلب العامل حريته ثم لا تلبث أن تسلبه إنسانيته ، بحيث أن كل ماوصفه كارل ماركس عن بؤس العمال وتعاستهم ، قد انقلب رأسا على عقب ، فأصبح العامل هو الذى يملى إرادته على صاحب العمل ، ولا يقبل من شروط العمل إلا مايحقق مصلحته ، وأصبح من المسائل المألوفة فى المجتمع الرأسمالى أن يسأل طالب الوظيفة عن الأجر المناسب له .

وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد بفضل التطور الآلى العظيم ، وعلى الرغم من أن ماركس وأتباعه آمنوا بالعلم وبالتطور العلمى ، فلم يتصور أن هذا التطور سيقلب صورة العامل على أيام ماركس ، من رجل يشبه أن يكون صامولة أو مسمارا صغيرا ، إلى أن يكون عقلا وإرادة تسيطر على مئات من الآلات ، ولقد شاهدت بنفسى إبان حياتى ، كيف أصبح العامل وليس رب العمل هو الذى يملى شروطه وذلك فى الحقل الذى اشتغلت فيه وهو الطباعة ، فقد كان صف الحروف فى أول عهدى باشتغالى بالصحافة يتم يدوياً ، وعلى الرغم أنه ليس من السهل الحصول على عمال متمرنين فى صف الحروف ، فمن

الناحية النظرية على الأقل كان من اليسير على رب العمل أن يستغنى عن أى عامل ويجد من يسد مسده ، حتى اخترعت آلة اللينوتيب التى تصف الحروف آليا ، وأصبح بقدرة عامل واحد يشتغل عليها ، أن يحل محل عشرة عمال أو أكثر ، ومثل هذا العامل يصل إلى درجة من المهارة لايمكن لأى عامل أن يصل إليها ، فضلا عن تشغيل أى عامل غير كفء على هذه الآلة قد يفسدها مما يسبب خسارة فادحة ، وهكذا أصبح العامل على آلة اللينوتيب هو الذى يحدد أجره وساعات عمله ، ولست أتكلم إلا بما شاهدت بعين رأسى ، وليست هذه حالة فردية ، بل إنها ظاهرة امتدت إلى كافة الصناعات ، ففى دنيا الغزل والنسيج مثلا ، كان على أيام ماركس يقف عامل أمام نول واحد ، ولكن آلات النسيج سرعان ماتطورت فأصبح العامل يشرف ويدير بمفرده خمسين نولا أو يزيد ، فلم يعد بذلك العامل الذى يمكن استبداله بأى شخص آخر كما تصور ماركس وهكذا أدى التطور الفنى للآلات إلى الارتقاء بمستوى العمال إلى الحد الذى أصبح من المتعذر إيجاد بديل للعامل الذى أتقن العمل على آلته .

كل ذلك ولم أتعرض بعد للمصانع الكاملة التى أصبحت تدار أتوماتيكيا فسأتحدث عنها وعن تأثيرها عندما نتعرض للحديث عن فائض القيمة ، أما الآن فإننى أكتفى بعرض التطور الذى جعل العامل يزداد رخاء وليس بؤسا كما تنبأ ماركس .

إن مالم يتصوره ماركس مثلا ، أنه سيجىء فيه وقت توجد فيه

طائرة تساوى ملايين الجنيهات ، وتحمل مئات الركاب ، ويكون ذلك كله فى يد سائق الطائرة ، إن مثل هذا الطيار يجب أنه تتوفر فيه عدة شروط ، قبل أن يعهد إليه بهذا العمل ، ومثل هذه الشروط قلما تتوافر إلا فى عدد محدود ، ومن هنا كان هذا السائق ، وليس صاحب الطائرة ، هو الذى يملى شروطه ، ومرة أخرى لايقولن قائل إن عدد الطيارين قليل ، فإنما هى ظاهرة عامة ، وقد أشرت فيما سبق إلى عمال الطباعة والنسيج ومثل هذا التطور الآلى قد حدث فى كل ميدان ، حتى ميدان الزراعة بعد أن أصبحت الزراعة تتم بالآلات ، فأصبح مطلوبا من الفلاح أن يقود جرارا أو محراثا ، أو آلة حصد بألوف الجنيهات ولم يعد من السهل أن تجد فى منطقة ما بديلا لسائق الجرار ، فالتصور الذى تصوره كارل ماركس أن العمالة ستظل بأعداد هائلة تحت رحمة الرأسمالى يختار منها مايريد ، وبأى ثمن يريد هو ، تصور ثبت بطلانه ، وأصبح صاحب الآلة المعقدة لايجد من يديرها بكفاءة ويصونها من التلف إلا أقل من القليل ، ويجب أن يقبل بشروط هذا العدد القليل ولعل هذا التطور هو الذى جعل الاشتراكية فى أيامنا تروج فى المجتمعات المختلفة ، حيث لايزال العمل يدويا بدائيا ، ولا يزال الفقر ضاربا أطنابه ، ولاتزال صورة البؤس التى تحدث عنها كارل ماركس باقية كما هو الحال فى أفريقيا وآسيا ، حيث أبقى الاستعمار هذه المجتمعات فى صورة متخلفة ، ففى هذه المجتمعات شرعت الحكومات الوطنية التى نشأت بعد الاستقلال فى محاولة تحسين خط العمال والفلاحين بأساليب جماعية ، ومازالت الفكرة الاشتراكية الخيالية ـــ

كما نادى بها كارل ماركس ــ تتراقص فى أعين الجهال باعتبارها الكيمياء السحرية التى ستحول فقرهم إلى غنى ، أما فى كافة المجتمعات الراقية ، والمتطورة فقد أصبحت تخاف على رقيها وغناها وحريتها من الماركسية .

وهكذا انقلبت نظرية كارل ماركس رأسا على عقب ، فحيث كان يتصور الاشتراكية صورة من صور التقدم تنبثق من الرأسمالية المتقدمة ، أصبحت الأفكار الاشتراكية لاتجد مجالا لها إلا بين الأوساط المتخلفة ، ومن المضحك أنه حيث يجد الشيوعيون الطريق أمامهم حرا لمزاولة نشاطهم ، لايستطيعون أن يتقدموا خطوة نحو الأمام ، ففى فرنسا وإيطاليا ملايين من العمال الشيوعيين ومع ذلك فقد ظل حالهم منذ عدة سنوات ، وعددهم فى تناقص لا فى ازدياد ، والمهم أن هذا الطراز من الشيوعيين أصبحوا يعارضون نظرية ماركس فى كثير من أصولها وقواعدها بعد أن أصبحوا مجرد حزب سياسى يسعى للوصول إلى النفوذ والسلطة ويستطيع أى مراقب ، أن يرى أن هذه الأحزاب الشيوعية ، قد أصبحت الآن أبعد عن الحكم مما كانت عليه منذ أعوام وأعوام بعد أن أثبتت التجربة ما أثبتت .

فائض القيمة :

لنصل الآن إلى حجر الزاوية فى نظرية كارل ماركس الاقتصادية والتى بنى عليها كل حساباته وتنبؤاته .

ويلخص نظرية كارل ماركس عن فائض القيمة أنه بدأ فجعل قيمة أى سلعة تقدر بمقدار مابذل فيها من عمل ، ولسنا نريد أن ندخل فى مناقشات حول أى العناصر هو الذى يحدد قيمة أى شيء وإنما نذكر بخطأ إرجاع قيام أى شيء إلى عنصر واحد .

وحسبنا أن نشير إلى أن أى حاجة من الحاجات ، تختلف قيمتها بحسب تعدد الأشخاص ، بل إن قيمتها تختلف بالنسبة لشخص واحد بعينـــه بحسب الظـــروف والأحـــــوال ، على أن هذا ليس هو موضع الإشكال ، ونحن نقرر أن مايبذل من عمل فى أى سلعة هو من أهم العناصر فى تحديد ثمن هذه السلعة .

يقول كارل ماركس : إن العامل يبيع قدرته على العمل لصاحب رأس المال الذى يشتريها كما يشترى أى سلعة أخرى ، والعامل ـــ أى عامل ـــ يبيع قدرته على العمل فى مقابل مايكفى للحصول على قوته وقوت أولاده ، وهو مايكفى لتحقيقه لساعتى عمل أو ثلاثة ، ولكن الرأسمالى يشغل العامل ثمان أو عشر ساعات ، وهذه الساعات الزيادة فى العمل ، هى مايسمى فائض القيمة ، وما يحقق للرأسمالى أرباحه التى تتزايد باستمرار نتيجة تراكم فائض العمل ، ومن هنـا وصف الرأسماليـون بأنهم مصاصو الدماء ، إلى آخر ماقيل فى وصفهم ، ولم يطف بخيال كارل ماركس ـــ وهـــو ما يجب أن يحاسب عليـــه ـــ ، أنـــه لم يمض كبير وقت ، حتى تنشأ مصانع بأكملها يتولى الإنتاج فيها وإدارتها العقول الألكترونية التى يحتاج تشغيلها إلى اثنين أو ثلاثة على الأكثر ، هم إلى العلماء والمهندسين والرياضيين أقرب ، وهكذا أصبحنا نرى مصانع

تنتج أضعاف ماينتجه ألوف من العمال ، ولا يعمل فى هذه المصانع إلا بضع نفر يعدون على الأصابع ، وهكذا تنهار نظرية فائض القيمة من أساسها ، فإن أحداً لا يجرؤ على الادعاء أن ما تنتجه المصانع الآلية ، هو من عمل هذين المشرفين أو الثلاثة ، حقا إن لهم دور الإنسان وعقله ولكن لايمكن أن ينسب إليه المنتج ويقال إنه من عمله ، إنه وضع جديد يختلف كل الاختلاف عن تصورات ماركس ، والمهم أنه يجعل فائض القيمة حديثا أقرب إلى الهذر منه إلى الجد .

دورية الأزمات وحتميتها :

كان من تفريعات ماركس على فائض القيمة ، ما قال به من أن تراكم فائض القيمة يؤدى إلى زيادة الإنتاج فى الوقت الذى تضعف فيه قوة العامل على الشراء ، ومن هنا تتواجد الأزمات الاقتصادية بطريقة حتمية ، وسجل ماركس الأزمات الاقتصادية فى أيامه ، كما راح خلفاؤه ، يسجلون هذه الأزمات فى جداول تظهر دوريتها ، وفات ماركس كما فات خلفاؤه ، قدرة الإنسان على التصحيح والتطور والتكييف ، فقد مر الآن أكثر من ثلاثين سنة على العالم الرأسمالى دون وقوع هذه الأزمات ، إذ أن الدولة أصبحت تتدخل للحيلولة دون وقوع الأزمات ، ومبدأ منع الدولة من التدخل الذى كان هو صيحة القرن التاسع عشر ، قد حل محله مبدأ تدخل الدولة لحماية كل رعاياها وتوفير فرص العمل لهم ، وضمان حد أدنى من المعيشة لكل مواطن ، لا يمكن الهبوط عنه .

إن كارل ماركس وهو يتحدث عن العمل كسلعة مطروحة فى السوق تخضع لقانون العرض والطلب ، وبالتالى يظل أجره فى انخفاض ، لم يطف بذهنه أن سيوجد مايسمى عقد العمل المشترك حيث يتم فيه الاتفاق حول شروط العمل بين مجموعة العمال والرأسماليين ثم لايجوز بعد ذلك لأى صاحب عمل أن يخالف هذه الشروط ، كما لايجوز لأى عامل أن يشتغل بأقل من الأجر المحدد فى هذه العقود أو أن يعمل ساعات أكثر ، ولم يطف بخيال ماركس ، أن سيأتى وقت تكفل فيه الدولة كل عامل فى حالة بطالته فتدفع له مالا يقل إلا قليلا عن أجره فى حالة العمل ، وقبل أن تقوم الدولة بذلك قامت بالعملية بعض شركات التأمين والنقابات .

والمهم أن الأزمات الاقتصادية اختفت من العالم الرأسمالى ، ومن أعجب الظواهر فى الوقت الحاضر أن المجتمعات الرأسمالية المتطورة أصبحت تشكو من قلة اليد العاملة ، ففتحت أبوابها لهجرة اليد العاملة من الشعوب المتخلفة ، حتى أصبح زنوج أفريقيا وأبناء آسيا هم التيار الغالب فى مدن أوربا الكبرى وانعكست الآية ، فلم تعد هناك أزمات بطالة ، وإنما أزمات قلة اليد العاملة .

دور الدولة :

نصل الآن إلى عكس ماتصوره ماركس من أن دور الدولة يأخذ فى التناقص بعد إلغاء الرأسمالية وتصفيتها ، لأن الدولة فى حقيقتها هى مظهر سلطة الطبقة السائدة التى تستغل طبقة أخرى ، فإذا انتفى

الاستغلال لم يعد هناك دور للدولة ، ولذلك فإنها تذوى وتذبل إلى أن تنقرض ، ولم يدر بخلد كارل ماركس أن المجتمع الإنسانى فى مجموعة ليس إلا صورة مكبرة من الإنسان الفرد ، كما لا يمكن لأى إنسان أن يعيش بغير عقل يحكم كل حركاته ورغباته ، فكذلك المجتمع لا يمكن أن يعيش بغير سلطة عليا تكون له بمثابة العقل للإنسان .

إن كارل ماركس وضع كـل همه فى التبشير لهذا المجتمع اللاطبقى ، ووقف به عقله وتحليلاته عند هذا الحد وراح يتغنى بهذا المجتمع اللاطبقى ، ويتحدث عنه حديثه عن الجنة الموعودة فى سائر الأديان ، فتحدث عن انقلاب النفس البشرية نفسها ، فلا يعود هناك محل للحسد أو الغيرة أو الأنانية أو حب الامتلاك ، أو الرغبة فى السيطرة والاستعلاء والتحكم ، وزاد على ذلك بعض تلامذته المفتونين ، أنه لن يكون هناك فقر أو مرض أو جهل ، وكل هذه أوهام أثبتت خمسون سنة من الاشتراكية فى روسيا عكسها على خط مستقيم ، ويحلو لدعاة الشيوعية فى معرض إظهار معجزاتها أن يصوروا روسيا قبل الشيوعية ، مجتمعا قفرا متخلفا ، ثم يروحون يتشدقون بما وصلت إليه روسيا من قوة واقتدار بحيث استطاعت أن تهزم هتلر سيد ألمانيا الذى قهر أوربا كلها ، كما أصبحت الآن ثانى قوة فى العالم ، وكل هذا تضليل وهو ماتشهد أن كارل ماركس استطاع أن يغرق فيه البشرية ، وساعد على ذلك أساليب القمع الوحشية التى اصطنعتها الشيوعية والقوة المخيفة التى وصلت إليها الدولة فى ظلها ، بحيث أصبح من أيسر الأمور أن تخمد الدولة وأن تبيد كل رأى لايقول بقولها ، فروسيا وحدها تؤلف سدس

مساحة الكرة الأرضية أى أنها بطبيعتها يجب أن تكون أعظم وأغنى دولة فى العالم لا أن تكون الثانية وأن تكون الأولى أصغر منها مساحة وأقل سكانا .

وأما أن روسيا السوفيتية استطاعت أن تهزم بنظامها ألمانيا الجبارة فى الأربعينات من القرن العشرين ، فقد هزمت روسيا فى القرن التاسع عشر نابليون بونابرت الذى دوخ أوربا كلها ، ودهم روسيا بأعظم جيش عرفه العالم حتى ذلك التاريخ ، وأبيد جيش نابليون ، ودخلت الجيوش الروسية باريس واعتبرت روسيا فى ذلك الوقت أنها أعظم دولة فى البر ، كما أن إنجلترا أعظم دولة فى البحر ، المهم أن روسيا فى تاريخ أوروبا لعبت دوراً طليعياً فى أوروبا ، فهراء ما يقولونه عن ضآلة روسيا قبل الشيوعية بمقارنتها بروسيا الشيوعية .

بقى أن يقال إنها لم تكن تنتج ما تنتجه الآن من آلات ومهمات عصرية وهو قول سخيف بطبيعة الحال عندما يعاب على شعب ــ أى شعب ــ أنه لم ينتج فى القرن الثامن عشر ما أنتجه فى القرن العشرين فلكل عصر ظروفه على أنه إذا كان هناك إنتاج مشترك فى كل العصور فهو الإنتاج الفكرى والأدبى والفنى وفى هذه الميادين أنتجت روسيا قبل الشيوعية مالم تستطع أن تنتج مثله الآن فقد أخرجت أساطير الفن الذى يهتز العالم لمجرد سماع أسمائهم الخالدة مثل تولستوى ، دسيتوفسكى وتورجنيف ، وغيرهم حتى مكسيم جوركى معبود الشيوعيين فى الأدب فهو من نتاج روسيا قبل الماركسية لا بعدها ، ولينين نفسه هو ثمرة روسيا القيصرية لا روسيا الماركسية التى لم

تستطع أن تنجب فنانا واحدا يمكن أن يكون له تأثير عالمى .

غير صحيح إذن أن روسيا قبل الشيوعية كانت صفرا على الشمال ، بل كانت دولة لها خطرها ووزنها فى المجتمع الإنسانى ، وإذا كان الفساد قد دب إلى قياصرتها فقد قامت الثورة لتصحيح ذلك كما يحدث فى أى مجتمع آخر عندما ينحل الحكام ، ويسيطر الفساد على المجتمع ، أو تقوم الثورات لتصحح وتصلح ، وحسب روسيا أن كان بها عمال لينتجراد العاصمة (بطرسبورج) الذين قاموا بثورة أكتوبر التى سلمت لينين السلطة ، فاستطاع بفضل عبقريته الذاتية ، أن ينهض بروسيا ، ويقيل عثرتها ويضعها على الطريق الجديد وقد كشفت اليابان وألمانيا عن خرافة الادعاء بأن روسيا ماكانت تستطيع أن تحقق ماحققته إلا فى ظل النظام الماركسى ، ذلك أن اليابان التى خرجت مهزومة فى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) والتى احتلتها أمريكا قد استطاعت فى خمس وعشرين سنة أن تصبح ثانى دولة فى العالم الغربى من حيث الإنتاج أى بعد أمريكا .

وقد بقى أن تعرف أن جزر اليابان لاتوجد بها مواد أولية تمكن اليابان من إنتاج ماتنتج ، وأنها تستورد من الخارج كل ماهو لازم للصناعة ، ومع ذلك فهى تنتج أعظم سفن فى العالم وأعظم قطارات سكة حديد وأعظم آلات الكترونية ، والمهم أنها تعتبر معجزة المعجزات فى عصرنا الحديث من حيث النهوض السريع ، وضخامة الإنتاج وعالميته ، كل ذلك واليابان هى اليابان لا يزال على رأسها إمبراطور يعبد ويطلق عليه ابن الشمس .

ألمانيا الغربية :

غير أن قصة ألمانيا الغربية قد تكون أعجب ، ذلك أن اليابان لم تدمر فى الحرب ، على خلاف ألمانيا التى سويت مدنها بالأرض ، والمصانع التى لم تهدم نقلت إلى روسيا ، والعلماء الجهابذة هاجروا إلى أمريكا أو سيطرت عليهم روسيا ، أى أن ألمانيا تحولت إلى كومة من الأنقاض ، ومع ذلك وبعد ربع قرن فقط أصبحت ألمانيا الغربية هى أغنى دول أوروبا على الإطلاق ، وبلغ إنتاجها وتجارتها أرقاما لم تحلم بها فى حياتها ، فالتحدث عما أنجزه الاتحاد السوفيتى فى هذه الخمسة والعشرين عاما لا يقارن بما حققته اليابان وألمانيا ، وقد سمعنا من قبل أن روسيا فى عام ١٩٧٠ ستتفوق على أمريكا فى الإنتاج ، وستتحول روسيا جزئيا من الاشتراكية إلى الشيوعية ، ولكن روسيا اليوم أبعد ماتكون عن أن تلحق أمريكا فى الإنتاج فضلا عن أن تفوقها ، وهو مابات يبدو أشبه بالمستحيل ، مما جعل روسيا تعيد النظر فى خططها وأساليبها مما سنشير إليه .

والمهم أن ماقال به كارل ماركس من أن الدولة تذوى فى النظام الاشتراكى قول أثبتت التجربة بطلانه ، فإن تجربة روسيا قد أثبتت العكس ، فلم يحدث أن كانت الدولة ــ فى أى يوم من تاريخ روسيا ــ أقوى منها بعد خمسين سنة من التطبيق الاشتراكى ، ولم تشهد روسيا فى كل تاريخها جباراً كستالين ، ولم يرتكب كل قياصرة روسيا ، وعلى رأسهم هذا الذى سماه التاريخ « إيفان المخيف » أقول :

لم يرتكبوا عشر معشار ماارتكب ستالين من الجرائم ، ذلك أنه لم يكن من المتيسر فى القديم أن تحكم الدولة قبضتها على الرعايا كما أحكمتها أيام ستالين ، ولقد كان خلفاؤه ، وعلى رأسهم خروشوف ، هم الذين أدانوا ستالين وجرموه ، حتى وصل الأمر بهم إلى أن رفعوا جثته من مكانها إلى جوار لينين ليدفنوها فى بقعة عادية جوار سور الكرملين ، وقد ألفت مئات الكتب والقصص لوصف الحياة الرهيبة أيام ستالين والذى يعنينا من ذلك كله أن الدولة قويت مع أنها لم تعد لمصلحة الرأسماليين الذين يحتاجون أجهزة القمع من بوليس وسجون ومحاكم وجيوش لإحكام قبضتهم على الطبقة العاملة ، بل لقد تضاعف ذلك كله باسم ديكتاتورية العمال ، ولم تلبث الديكتاتورية أن شملت العمال أنفسهم فتعرضوا للموت والسجن والاعتقال فى سيبريا ، ولم يعد باستطاعة أى عامل أن يترك عمله أو أن ينتقل من بلد إلى بلد إلا بإذن خاص ، أما الإضراب بمعنى التوقف عن العمل فقد أصبح كبرى الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام ، الأمر الذى جعل كل أفاق فى العالم يريد أن يحكم حكما مطلقا ، وأن يكون مطلق الأمر فى كل تصرفاته ماعليه إلا أن يعلن أنه اشتراكى وسيطبق النظام الاشتراكى فى بلاده لكى يقتل ويسرق وينهب ويستبد ويخضب أرض بلاده بالدماء تحت شعار الاشتراكية وتصفية الرجعية ، حتى العمال أنفسهم عندما يسحقهم بغير شفقة أو رحمة فهم ليسوا إلا منحرفين غرر بهم البورجوازيون .

ومرة أخرى يعنينا من كل ذلك أن تصورات ماركس عن الدولة

وأنها تصبح غير ضرورية فى ظل نظام اشتراكى ، قول قد أثبتت التجربة بطلانه ، ومن اللطيف أن ستالين لاحظ هذه الملحوظة ، فقال : كيف تذوى الدولة وتذبل فى ظل النظام الاشتراكى ، مع أننا نراها تقوى وتشتد ، إن هذا هو التناقض ، وهذا هو الديالكتيك (كذا) .

الدولة لا الطبقة :

وهكذا على عكس كل حسابات ماركس أصبحت الدولة — وليست طبقة العمال — هى (أى الدولة) التى تصنع الاشتراكية هذه الأيام بعد أن تلخصت الاشتراكية فى عبارة قديمة متناهية فى القدم ، وهى التى بشرت بها جميع الأديان ، وهى تحريم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، فلا عجب أن تلخصت الاشتراكية فى هذا المبدأ الخالد ، وعمدت الدول كل الدول على تطبيقه بصورة أو بأخرى واختارت الدول الرأسمالية أن تطبقه عن طريق فرض الضرائب الباهظة على أصحاب العمل ، وإنفاق حصيلة مايتجمع من هذه الضرائب على تحسين أحوال الطبقة الكادحة والفقيرة ، وأصحاب الأعمال فى البلاد الرأسمالية أصبحوا يفضلون بدلا من تكديس الأرباح لتدفع فى الضرائب أن يدفعوها للعمال زيادة فى أجورهم ، أو أن يقيموا للعمال مشروعات سكنية وصحية .

وهكذا تعاونت الدولة من ناحية وأصحاب الأعمال من ناحية على رفع مستوى العمال والترفيه عنهم ، بحيث أصبح أسوأ العمال حظا فى العالم هم عمال الدول الاشتراكية ، حيث إنه تحت شعار أن كل

شيء أصبح ملكا للعمال فقد أصبحت الدولة تفرض عليهم ساعات العمل الطويلة بدعوى أنهم يعملون لأنفسهم ، وتفرض عليهم ظروف العمل الشاقة ، بمقولة إنهم يجب أن يصبروا من أجل مستقبل أولادهم والمهم حتى لا يغيب عن أعيننا مانحن بصدده ، أن الدولة بدل أن تأخذ طريقها نحو الزوال ، قد أخذت طريقها نحو القوة وخاصة فى المجتمعات الاشتراكية ، حيث يتولى السلطة بعض القادة العسكريين ثم يلعبون لعبة الاشتراكية ، ويحكم كل من هب ودب باسم الاشتراكية ، ولم يطف ذلك بخيال ماركس أن المغامرين والأفاقين سيتمسحون بالاشتراكية ولا يتصور متصور أن فى ذلك جديدا . فمنذ أقدم العصور لايستقر حاكم فى الحكم فضلا عن أن يتفوق إلا إذا وضع فى حسابه رفاهية مجموع الشعب فى كل الأحوال مع اختلاف فى الوسائل تبعا لتغير العصور ، أما من حيث الجماعية ، أو الملكية العامة فقد كانت هى النظام السائد على مر العصور فى الدول الشرقية ، وليس سوى أوروبا فى القرن التاسع عشر من أظهرت هذه الملكية الخاصة المبالغ فيها ، ولم تلبث هذه الظاهرة أن تلاشت وعادت الملكية ، كما كانت دائما ملكية مقيدة ومحدودة لصالح كل الجماعة ، والدولة فى جميع صورها وأشكالها هى التى تضع هذه الحقيقة محل التنفيذ .

الدين أفيون الشعب :

نصل الآن إلى إحدى مقولات ماركس والتى لخصها وبلورها تلامذته الأقربون من أن الدين أفيون الشعوب ، وقد أشرنا من قبل إلى

أن كارل ماركس ولد من أبوين يهوديين ، وأن أباه لأسباب مصلحية من غير شك قد غير دينه اليهودى واعتنق المسيحية ، فلا عجب بطبيعة الحال أن شب ماركس غير متدين ، خاصة وأن الفلسفة التى كانت غالبة فى أوروبا كانت فلسفة مادية إلحادية ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن ماركس بالذات قد تأثر بفلسفة فورباخ المادية ، وإن كان قد تطور بها من المادية الميكانيكية الفجة إلى ما أسماه المادية الدياليتيكية التى سنرى أنها مفهوم غامض ، على أن الذى يعنينا الآن هو ماقال به ماركس من أن الدين أحد أسلحة الطبقة البورجوازية لتحكم به الطبقة العاملة والكادحة وأن الدين ليس فى حقيقته إلا مخدر لتنويم الشعوب ، وعندما ينقشع الجهل ويسود التعليم فسوف يصبح الدين كل دين من خرافات الماضى ، وقد كان هذا التصور الماركسى من أوضح التصورات فى ذهن لينين ، ولعله هو الذى صاغ هذه العبارة المشهورة من أن الدين هو أفيون الشعوب ولم يتردد لينين لحظة واحدة فى إلغاء الكنيسة فى روسيا بأن صادر جميع أموالها وأغلق دور العبادة بشتى صورها وأشكالها وحرم التدين .

ولينين فى ذلك لم يأت بجديد ، فمن قبله بمائة عام أو يزيد ، فعل قواد الثورة الفرنسية مثل فعلته ، ونادى روسبيير أحد زعماء الثورة الفرنسية بعبادة العقل ، ونصب نفسه فى احتفال ضخم كاهنا لهذا الدين الجديد وسرعان ماتعلق الشعب بنابليون الذى قوض الثورة ونادى بنفسه إمبراطوراً ، لمجرد أنه أعاد فتح الكنائس وتصالح مع البابا ، وهذا هو عين ماحدث فى روسيا ، فقد ألغى لينين الكنائس وأغلق أبوابها ولو

امتد العمر بلينين لكان هو الذى أعاد فتح الكنائس ولكن الأجل لم يمتد به ، ليكون ستالين هو الذى يقوم بهذه الخطوة مسفها بذلك كارل ماركس ومبطلا أحد أقواله ونظرياته .

فقد انقضى الآن أكثر من خمسين سنة على قيام الثورة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، أى أن الأغلبية العظمى والتى تزيد على ٩٠ ٪ من الذين ولدوا فى ظل الشيوعية ، وكلهم ممن تعلموا فى مدارس الدولة ، أن الدين هو أفيون الشعوب وأن لاشىء فى الطبيعة سوى المادة ، ولا شىء غير المادة ، ولم يكن هذا مجرد كلام يقال ، بل هو أشبه بدين الدولة الرسمى ، أى الويل كل الويل لمن يقول بغيره ، وعلى كل حال فمناصب الدولة وجميع مراكزها القيادية ، وعلى رأسها عضوية الحزب التى هى شرط أساسى لكل تقدم ، كل ذلك بات محظورا على من يؤمن بالله ويكفر بالمادية وكان مؤدى المنطق أو بالأحرى طبائع الأشياء ، أن يكون الدين فى روسيا قد أصبح من مخلفات الماضى ، وأن لا يوجد متدين واحد فى روسيا إلا إذا كان قد تجاوز الستين من عمره ، ولكن العجب كل العجب أن الكنيسة فتحت أبوابها من جديد فى روسيا ، وأصبح للكنيسة الروسية بطريرك ومطارنة ومدارس لاهوتية ، بل إن الأمر قد وصل إلى حد عقد مؤتمر الكنائس فى روسيا ، أما الجمهوريات الإسلامية ، فقد عادت المساجد إلى فتح أبوابها وأصبح موسم الحج كل عام يشهده الحجاج من الاتحاد السوفيتى وتحرص الدولة السوفيتية على تضخيم هذه الظواهر للتقرب من العالم المسيحى والإسلامى .

وقد بقى أن تعرف أن عودة الطوائف الدينية من جديد فى روسيا يشبه أن يكون معجزة .

فالدولة تقف من الناحية النظرية موقف العداء ، وهى من الناحية العملية لا تقدم لرجال الدين أو لدور العبادة أى مساعدة مادية ويكون ازدهار الكنائس والعبادات الدينية فى روسيا معناه أن جماهير الشعب التى رضعت المادية ، هى التى تدفع مرتبات رجال الدين وهى التى تنفق من دخلها المحدود على إبقاء دور العبادة مفتوحة ، وقديماً كان الأغنياء هم الذين يفعلون ذلك ، حتى إذا أصبحت الدولة غنية أنفقت هى على دور العبادة ، واليوم لا يوجد فى روسيا أغنياء والدولة لا تنفق ، فليس سوى الفلاحين والعمال والشغيلة من ينفقون على هذه الدور .

بطل إذن مايزعمه كارل ماركس ولينين من أن الدين أفيون الشعوب ، فمن الذى يخدر هذه الملايين التى تبقى الكنائس والمساجد مفتوحة فى روسيا وهم يعلمون أنهم بفتح الكنائس والمساجد يعادون المذهب الرسمى للدولة ويحرمون بالتالى من الانضمام إلى الحزب القائد فضلا عن تقلد الوظائف .

وترجع قصة إعادة فتح الكنائس والمساجد فى روسيا إلى أيام الحرب العالمية الثانية ، حيث توالت الكوارث على روسيا ولم يجد ستالين حاكم روسيا المطلق آنذاك مايقدمه لمواساة الشعب إلا أن يطلق له حريته الدينية ، عله يجد عزاءه فى الدين فأبيح لمن يريد من أفراد الشعب أن يلوذ بالدين ، وهكذا أعيدت مشاعر الدين ، ولما انتهت الحرب بانتصار

الروس ظلت الكنائس مفتوحة ، ولايجب أن يفهم من هذا أن الشعب الروسى أصبح غارقا فى المسيحية كما كان ، ولكن الذى لاشك فيه أن حظ الجمهرة العظمى من الشعب السوفييتى من الدين يفوق بكثير نصيب سكان أوربا الغربية ، فضلا عن أمريكا من التدين ، فلا تزال أخلاقيات الأسرة ، وعلاقة الأفراد ببعضهم أعلى بكثير من مثيلاتها فى أمريكا .

تقديس لينين:

على أنه من الأمور المضحكة فى روسيا ، ما يؤكد بطلان ادعاء ماركس ولينين من أن الدين أفيون الشعوب ، وأنه على العكس من ذلك تماماً فهو غريزة إنسانية ، أو بالأحرى جزء من الطبيعة البشرية ، وهو أن تتطلع النفس إلى الأمور الغيبية ، وتجد توازنها وزادها لقطع رحلة الحياة الدنيا ، فى التعلق الغامض بأمور غيبية ، فعلى الرغم من أن الماركسية لا تعترف إلا بالجماعات والطبقة ، ولا ترى فى الفرد أى فرد إلا أنه إفراز من الجماعة ولا زيادة ، وعلى الرغم من أن الفلسفة المادية تنكر بطبيعة الحال أن تكون هناك حياة أخرى بعد الموت ، وأن الإنسان ينتهى بموته ، فإن الشيوعيين فى روسيا يتمسكون بجسد لينين بعد موته ، وجعلوا مقبرته مسكنا له ، ويصطف كل يوم أمام قبر لينين المئات والألوف تحت الجليد أو الأمطار ليحظوا بإلقاء نظرة على جسده المحنط تماما كما كانوا يفعلون بالقديسين ، وليس لهذا العمل مثيل فى أى بلد من بلاد العالم ، وإذا كان الروس يعبدون لينين ــ جريا على تقاليدهم ــ ميتا ، فإن الصينيين أصبحوا يعبدون ــ جريا على تقاليدهم أيضا ــ

ماوتسى تونج حيا ، وأصبحت عبادة الأشخاص وقفا على المجتمعات التى أصبحت تسمى نفسها اشتراكية ، فالزعيم ، والمعُلم ، والقائد كلمات لم تعد تتردد إلا فى العالم الشيوعى أو الذى يحاول أن يلحق بركابه .

وهكذا طاردت الماركسية ما أسمته خرافات الدين ، ليحل محلها سخافات الماديين ، حيث جعلوا من المادية الجدلية إلهاً ومن كارل ماركس ولينين أنبياء ، ومن كتاب رأس المال قرآناً أو إنجيلاً ، ومن مقبرة لينين فى موسكو كعبة ، والذى يعنينا من ذلك كله هو خطأ ما ادعاه الماركسيون من أن الدين هو أفيون الشعوب وهو ما بدأ الشيوعيون أنفسهم يعترفون بخطئه ، فأصبح الحزب الشيوعى الإيطالى يقبل فى عضويته المتدينين ، بل ورجال الدين من القسيسين والرهبان ، على أساس أن الإنسان يمكن أن يكون متديناً وشيوعياً فى نفس الوقت ، أى أنهم حصروا الماركسية فى نظام اقتصادى ، أما بولندا فقد عادت فى ظل حكم شيوعى لتكون أقوى حصن للكثلكة فى أوروبا على ما يقول البابا الذى قام بزيارتها ، وقد زار تيتو أحد أقطاب الشيوعية فى العالم بابا روما وراحا يتقارضان الثناء ، وما ذلك إلا لأن تيتو زعيم يوجوسلافيا ، قد كبر فى السن ونضج وأصبح يرى ما فى الادعاء بأن الدين هو أفيون الشعوب من سخافة ، وإنما الأصح أن يقال إن الحياة البشرية لايمكن أن تقوم إلا فى ظل الأمل ، وقد كانت الماركسية فى وقت من الأوقات أملاً ، ومن هنا كان نجاحها وانتشارها ، فلما أن أخفقت فى تحقيق ما علق عليها من آمال ، عاد الإنسان إلى الحقيقة الخالدة ألا

وهى أن أمل الإنسان فى حياة أسعد لا يتحقق على الأرض ، وإنما فى حياة ثانية بعد الموت ، مما سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد .

زوال الطبقة الوسطى :

نصل الآن إلى إحدى حسابات ماركس وتحليلاته وبالتالى تنبؤاته التى أثبتت الأيام بطلانها ككل ما قال به ماركس ، وقد أوقع ماركس فى هذا الخطأ ، كما أوقعه فى كل أخطائه الأخرى هو ولعه الشديد — ككل مفكرى عصره — من تبسيط الأمور وردها دائماً إلى الأبيض والأسود ولا شىء بينهما ، مع أنه بين الأبيض والأسود توجد درجات لا حصر لها ، ومن هنا قال ماركس إن المجتمع لا يتألف إلا من طبقتين اثنتين لا ثالث لهما ، وهما فى نظره الرأسماليون من ناحية والعمال من ناحية أخرى ، وأن ما يسميه الطبقات الوسطى فى طريقهم إلى الانقراض فلن يستطيع التاجر الصغير أن يبقى أمام التاجر الكبير ، ولا المالك الصغير أمام المالك الكبير ولا العامل الذى يعمل لحسابه أمام المصانع الكبرى ، ولكن التجربة قد جاءت بعكس كل حسابات ماركس ، فقد ظل التاجر الصغير والصغير جداً إلى جوار المتاجر العملاقة ، وليس هنا محل شرح الأسباب التى أدت إلى ذلك ، والمهم أنه فى أعتى الدول الرأسمالية قد زادت هذه الطبقة المسماة بالوسطى زيادة مفرطة ، فالشركات الضخمة لم تعد ملكاً لأفراد كما هو الشأن فى أيام ماركس ، بل أصبحت شركات مساهمة توزع أرباحها على الملايين من أصحاب الأسهم بما فيهم العمال أنفسهم والآلات الجديدة التى أصبحت فى كل

بيت ، احتاجت إلى ملايين الصناع الذين يعملون لحسابهم الخاص ، كما هو الشأن فى عمال إصلاح السيارات والتلفزيون والراديو وخلافه .

أما الأراضى الزراعية فقد قسمت ملكيتها على أكبر عدد من الفلاحين فى أعتى البلاد إمعاناً فى الإقطاعية ، ونعنى بها اليابان ، ومن اللطيف أن أمريكا الرأسمالية ، هى التى أدخلت هذا الإصلاح بالبرجوازية الصغيرة والتى كان كارل ماركس يتنبأ لها بالانقراض قد تضاعفت مرات ومرات على ما كانت فى أيام كارل ماركس وكل المؤشرات تدل على أنها ستظل فى ازدياد حيث تتناقص الطبقة العاملة بصورتها المكدسة قديماً فى المصانع ، حيث أصبحت الآلات هى التى تقوم بعملية الإنتاج ، وقد شاهدت بعينى رأسى هذه العملية تتم أمامى ، فقد كانت مصانع مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى تضم ثلاثين ألف عامل أو يزيد ، ثم تطورت هذه المصانع بحيث أصبحت تنتج أضعاف ما كانت تنتجه فى الماضى فى الوقت الذى بدأ فيه عمالها ينزلون إلى النصف فالثلث فالربع ، ولا يزال عدد العمال يتناقص فى الوقت الذى يزيد فيه الإنتاج ، ولقد ترافعت يوماً فى قضية لعمال الشركة اتهموا بحرق أجزاء من المصنع وتدمير آلاته ، وكان من بين ما عرضته على القاضى مأساة العمال الذين كان يتقاضى بعضهم ثلاثة قروش فى اليوم الأمر الذى لا يمكنهم من شراء جلباب من القماش الذى تصنعه أيديهم ، ورفعت عقيرتى بالإنذار والتحذير ، وقد عشت حتى رأيت شركة مصر للغزل تبنى أفخر مساكن عرفتها المحلة لعمال الشركة ، وتبنى لهم النوادى والمستشفيات وتقدم لهم الطعام بمبالغ

رمزية . على أن الظاهرة الأغرب والتى تهدم كل حسابات ، أنه كلما تضخمت شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة ، كلما ازداد عدد العمال الذين بدأوا يشتغلون لحسابهم فيبتاعون أنوال الشركة القديمة والمكسرة ، فيصلحونها وينتجون عليها لحسابهم الخاص وهكذا لم يبتلع المصنع الجبار المحلات الصغيرة بل إن ما حدث هو عكس ذلك تماماً إذ أفرخ المشروع الكبير مئات من المشاريع الصغيرة .

إن ما فات ماركس ـــ وكان طبيعياً أن يفوته ، بعد أن جرد الإنسان من إنسانيته وتصوره مثل أى حبة من الرمل لا أكثر ولا أقل ـــ أقول إن ما فات ماركس ، هو حرص كل إنسان على إثبات شخصيته وحرصه إذا ما أتيحت له الفرصة على الانفراد والتميز ، فإذا كانت المصانع الكبرى ، والمتاجر الكبرى ، تقدم سلعاً أو خدمات ممتازة ورخيصة ، فإن باستطاعة المصانع والمتاجر الصغرى والمتناهية فى الصغر أن تقدم سلعاً وخدمات فريدة تشبع حاجة بعض الأشخاص إلى التميز والانفراد .

وفى المجتمع الروسى نفسه ـــ حصن الماركسية ـــ أصبح يتكاثر من جديد هؤلاء العمال والصناع الذين يعملون لحساب أنفسهم وكان الشرط الذى أصبح الشيوعيون الروس يشترطونه للسماح لهؤلاء بالعمل هو أن لا يستأجروا عاملاً آخر لمساعدتهم ، حتى لا يكون ذلك استغلالاً لعمل إنسان آخر :

والخلاصة ، أن ما ادعاه ماركس من أن المشروع الصغير

سيختفى أمام المشروع الكبير ، قد ثبت بطلانه ، ككل أقواله .

انشطار الذرة والصعود إلى القمر:

نلاحظ فى الطبيعة أجساما معتمة وأخرى شفافة وكذلك فى العقول والنفوس ، فمنها ماهو معتم ومنها ماهو شفاف وما أكثر ماقالوا وزادوا وعادوا فى قدرة ماركس الخارقة على التحليل ، ولكن الذى لاشك فيه أن نفسية ماركس وتفكيره وشخصيته كانت من الصنف المعتم ، ولا عجب فى ذلك فقد أراد أن يقيم تفكيره على المادة ، وما أسماه الحقائق العلمية الجافة وسخر بما أسماه الاشتراكية الحالمة والنظرية .. ولذلك فقد كان تفكيره كما قدمنا معتما فلم يستطع أن يمد بصره لأبعد من أنفه ، أو بالأحرى الظروف السائدة فى أيامه ، وكل ماستطاع أن يفعله بخياله ، أن يمد الخطوط التى كانت مرسومة أمامه ، ولم يتصور أبدا أن هذه الخطوط قد تنحنى ، وأن مايُتَصوَّر سيرا فى طريق محتوم ، قد يجد من الاحتمالات مالا يجعله محتوما ، من ذلك على سبيل المثال ، أن ماركس — ككل أبناء عصره — تصور المادة هذا الشيء الجامد الصلب الذى تؤلف الذرة لبنته الأولى ، ولم يتخيل ماركس أن هذه الذرة سوف تنقسم ، وسينشأ من انقسامها طاقة لا مثيل لها من قبل ، وأن هذه الطاقة سيكون لها من قوة التدمير مايفنى المجتمع الإنسانى كله بما فيه من سادة وعبيد ورأسماليين وعمال ، وأن تخطيطات ماركس وتصوراته ستصبح شيئا تافها إزاء هذه القوة الجديدة ، قوة الانشطار النووى ، بحيث تصبح روسيا حصن الماركسية ، تقف خائفة مرتجفة من إشعال حرب لن يكون فيها غالب أو مغلوب ، ولكن دمار شامل للحضارة

الإنسانية ، وبصفة خاصة مزيدا من البؤس والتعاسة للطبقة العاملة بالذات ، ومن الناحية الثانية ، فإن التوسع فى استخدام الطاقة النووية فى الإنتاج قد يوفر على الإنسان أى جهد يبذله ، وحتى الآن فإن الدول المسماة بالرأسمالية هى التى أصبحت بالأكثر تسيطر على استعمالات هذه الطاقة فى طريقى التدمير والتعمير .

الصعود إلى القمر وبقية الكواكب:

أما الشيء الثانى الذى لم يتصوره كارل ماركس فهو أنه سيجيء وقت يصعد فيه الإنسان نحو القمر ، شاقا بذلك طريقه نحو بقية الكواكب وفى مقدمتها المريخ ، ونحن لا نزال الآن فى بداية الطريق ولكنه مؤشر للمستقبل ، يجعل كل ما مضى من تاريخ الإنسان شيئا يختلف كل الاختلاف عما هو آت من الزمان ، وإذا كان القرن العشرون لا يزال أمامه ثلاثون سنة ليفعل فيها الكثير ، فالذى لا شك فيه أن القرن الحادى والعشرين سيشهد إنسان الفضاء وحياة الإنسان على الكواكب الأخرى ، وهو شيء يختلف كل الاختلاف عما نعرف ، وحسبنا لكى ندرك مدى اختلاف الظروف ، أن نتصور الآن ، أن جيشا ضخما من العلماء والمهندسين والعمال المهرة الذين يقدرون بمئات الألوف ، يعملون بالليل والنهار لكى يتمكنوا من توصيل إنسان واحد إلى القمر ، ولست تعرف أين مكان مثل هذه العملية من ثرثرة كارل ماركس حول وسائل الإنتاج وأنها وحدها التى تنظم المجتمع ، فهذا الجيش من العلماء والمهندسين الذين يتقاضون أضخم المرتبات لا يعملون فى إنتاج شيء ، وإنما يطفئون ظمأ الإنسان إلى المعرفة من ناحية ، ويمدون فى سلطان

الإنسان إلى الفضاء الخارجى من ناحية أخرى ، ولا علاقة بين ذلك وبين سد حاجات الإنسان المعاشية التى يعتبرها ماركس هى كل شىء فى حياة الإنسان .

واللطيف فى موضوع الصعود إلى القمر ، أن المجتمع الروسى هو الذى بدأه ، عندما أطلق فى الفضاء أول قمر صناعى منذ أكثر من عشر سنوات ، ثم أرسل إنسانا بعد ذلك إلى الفضاء وهو ما يسمى جاجارين ، الذى حلا له يومها أن يسخر من المؤمنين بالله ، فقال بكل وقاحة وتبجح أنه لم ير الله ، كأن أحدا يقول بأنه سيرى الله ، ونسى جاجارين أنه قال ماهو أسخف مما قد يقوله أى إنسان مشعوذ ، إذ أنهم سألوه ألم يكن يخشى شيئا وهو معلق فى الفضاء ، أو بمعنى أصح أنه لم يستشعر الخوف ، فأجاب جاجارين فى غير تردد ، أنه كان يعلم أن اللجنة المركزية هناك وأنها لن تتركه أبدا فكيف يخاف وليس ذلك إلا قول هراء ، ولو أنه قال إنه كان مطمئنا لجيش العلماء والمهندسين والعاملين لكان لقوله معنى ، ولكنه اختار أن ينسب للجنة المركزية للحزب قوى غيبية لا تملكها ، فما الذى تستطيعه اللجنة المركزية إذا تعطلت أحد أجهزة سفينة الفضاء ولكنه الدين الجديد ، الذى يؤله أنظمة الحكم ويجعل قوتها وقدرتها بغير حدود ليس فقط على ظهر الأرض ، ولكن فى الفضاء الخارجى أى السماء .

وقد استغل الشيوعيون هذا السبق ليتحدثوا عن تفوق النظام الماركسى الذى مكنهم من هذا التفوق ، وكانت الولايات المتحدة بعيدة عن التفكير فى هذا الميدان فأخذت على غرة ، وعز عليها أن تسبقها

روسيا ، وشرعت فى العمل لتعوض مافاتها ، ووضعت مشروعا جبارا طويل الأمد أن تضع إنسانا فوق القمر عام ١٩٧٠ وبدأت من الصفر ، وحيث كان الروس يطلقون أقمارا صناعية زنتها عدة أطنان وكانوا يرسلون إلى الفضاء ثلاثة رجال فى سفينة فضاء واحدة ، كان الأمريكان يطلقون أقمارا تزن بضعة أرطال ، وحيث كان رجال السوفييت يدورون حول الأرض فى الفضاء الخارجى عدة أيام، أرسل الأمريكان رجالهم فى الفضاء لمدة عشر دقائق أو ربع ساعة .

ومضى الأمريكان فى تنفيذ برنامجهم الذى رسموه عاما بعد عام وهو يسير كالساعة الدقاقة تحت سمع البشرية كلها وأبصارها حتى انتهوا إلى ما أسموه مشروع أبوللو وهو إرسال إنسان إلى القمر ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً منقطع النظير ، وشهدت البشرية وصول إنسان إلى القمر وعودته منه ، والمهم أن الروس الذين كانوا سابقين على الأمريكان بثلاث سنوات ، سرعان ماتخلفوا عنهم وكان أول إنسان هبط على القمر أمريكيا وليس روسيا ، فأسرع الروس يقولون أن ليس من برنامجهم إرسال إنسان إلى القمر مادام فى استطاعة الآلات أن ترسل مركبة آلية إلى القمر وتعود منه بغير حاجة إلى إنسان وهى سفسطة أرادوا بها أن يستروا بها فشلهم .

فمما لا شك فيه أن مستقبل الإنسان البعيد أصبح على ظهر الكواكب ، وإذا كان لا جدوى من إرسال إنسان إلى القمر فقد كان من باب أولى أن لا يرسلوا مجرد رجال يدورون فى الفضاء لمدة أسبوع ،

فإن الآلات أقدر على الدوران إلى مالا نهاية ، لقد كان من حظى أن أشهد هذه الفترة من حياة الإنسانية ، وفى مذكراتى تسجيل لهذا الصراع العلمى بين الروس والأمريكان وقد كنت منحازا بعواطفى نحو الروس ، وطالما رددت فى مذكراتى أن أول إنسان سيصعد إلى القمر سيكون روسيا إلى أن كانت النتيجة ماكانت وأعلن الروس انسحابهم من هذا الميدان ، والذى يعنينا من ذلك كله أن نجاح الروس المذهل فى بادىء الأمر لم يكن مرجعه النظام كما ادعوا ولكن مجرد أولوية أعطوها لمشروعات الفضاء وسبقوا بها الولايات المتحدة ، فلما أن وجهت هذه الأخيرة عزمها على الفور فى هذا السباق كان فوزها ساحقا ، فالمسألة اليوم لم تعد مسألة أنظمة اجتماعية ولكن مسألة تفوق علمى ، وقد انقسم العالم اليوم قسمين أساسيين ، الذين يعلمون ويصنعون والذين لا يعلمون ولا يصنعون ، والذين يعلمون ويصنعون أصبحوا أغنى الأغنياء وبات متوسط دخل الفرد فى هذه المجتمعات يزيد على ألف دولار فى العام ، فى مقابل بعض دولارات متوسط دخل الفرد فى المجتمعات التى لا تعلم وبالتالى لا تصنع .

والمشكلة التى تهدد العالم ككل هى الانفجار السكانى ، حيث يوشك سكان العالم أن يصلوا إلى أربعة آلاف مليون نسمة ، وأيا كان النظام الذى يتبعونه فلن تكفى موارد الأرض لسد حاجاتهم ، ولا حل لهذه المشكلة فى الزمن البعيد إلا حرب ذرية تهلك مئات الملايين من البشر ، بل ألوف الملايين ، وإما أن تعثر البشرية على مجال جديد لغذائها وحياتها فى البحار أو على ظهر الكواكب الأخرى وكلا الأمرين لم

يخطر على بال كارل ماركس الذى كان محبوسا فى أفكار عصره المظلمة .

المجتمع الشيوعى أو الجنة الموعودة :

يصل كارل ماركس فى نهاية تحليلاته وتنبؤاته العلمية الراسخة إلى خاتمة المطاف بتحول المجتمع الاشتراكى فى ظل ديكتاتورية البروليتاريا ، إلى المجتمع الشيوعى ، وهو مجتمع يخلو من الطبقات ، وبالتالى فيتوقف الصراع ويروح كارل ماركس يحدثنا عن سمات هذا المجتمع اللاطبقى ، كيف سيصبح فيه العمل سعادة ولذة بعد أن تصفو النفوس من أدران الماضى كحب الملكية والتسلط والاستغلال ويتحول الناس جميعا إلى أخوة متحابين متعاونين بإرادتهم الحرة ، وحيث تصبح الدولة والحكومة والجيش والبوليس والمحاكم والسجون ، أشياء وذكريات من مخلفات الماضى ، وباختصار يعدنا ماركس بجنة أرضية من صنع الإنسان ، بدلا من الجنة السماوية التى تبشر بها الأديان ويهمنا من أوصاف هذه الجنة الموعودة ، السمة التى تفترق فيها الشيوعية عن الاشتراكية ، فكلا النظامين تصبح فيهما وسائل الإنتاج مملوكة للجماعة ، وتكون ثمرات العمل عائدة على العمال ، والخلاف بينهما هو فى طريقة التوزيع ، ففى ظل الاشتراكية يكون الشعار السائد « من لا يعمل لا يأكل » أو بحسب التعبير الأكثر تهذيبا « من كل بحسب كفاءته وإلى كل بحسب عمله » وذلك لأن رواسب الماضى لا تزال تتملك النفوس ، والموارد المنتجة المتاحة لا تزال قليلة محدودة ، ولكن الإنتاج فى ظل الاشتراكية

بعد القضاء على الرأسماليين الذين يقفون حجر عثرة فى سبيل الإنتاج ، سوف ينمو ويتضاعف ، بحيث يصل المجتمع إلى تطبيق المبدأ الأسمى « من كل بحسب كفاءته إلى كل بحسب حاجته » .

ولنمر مرور الكرام على النصف الأول من هذا الشعار « من كل حسب كفاءته » فما دام البشر سيحصلون على كل ما يحتاجونه سواء عملوا أو لم يعملوا ، فما الذى يدعوهم إلى العمل ، أقول فلندع هذه القضية حتى لا نتهم بنفسية مريضة ، فعند ماركس أن العمل سيتحول إلى لذة وسعادة ، والمسألة حديث عن أمر فى المستقبل البعيد ، ولكن لنتحدث عن النصف الثانى من المبدأ الذى أصبح يمكن الحكم عليه بما أصبح يجرى فى روسيا بعد نصف قرن فى ظل الحكم الاشتراكى وبعد تطبيق مشاريع الإنتاج الثلاثية والخمسية والسبعية مرات ومرات ومقارنة ماوصل إليه المجتمع الاشتراكى فى هذه الناحية بغيره من المجتمعات ، إن كارل ماركس عندما كان يحلم ويتخيل (وهو الذى يندد بالخياليين) أن سيجىء وقت يمكن فيه أن يعطى كل إنسان من البشر قدر حاجته ، كان يضع فى رأسه من غير شك ، حاجة الإنسان إلى مطالبه الأساسية من خبز ولحم وكساء ، ولم يدر فى خلده أن عدد السكان سيظل يتضاعف إلى الحد الذى لن تكفى فيه موارد الأرض الأساسية لتقديم كسرة من الخبز للسواد الأعظم من الناس وأن مشكلة البشر الكبرى التى عليهم أن يحلوها قبل ثلاثين سنة من الآن ، هو البحث عن موارد جديدة لمجرد العيش ، على أن حاجات الإنسان فى الوقت الحاضر قد تطورت وتعقدت وهى دائما فى ازدياد وتعقد ، لقد كان

حلم لينين الأكبر أن يكهرب كل روسيا ، أى ينشر فيها التيار الكهربائى ، حتى لقد عرف الشيوعية بأنها حكم السوفييت (أى لجان العمال والفلاحين) زائد كهربة الاتحاد السوفييتى ، وكان هذا القول فى عام ١٩١٧ أو حولها ، والآن انتشرت القوى الكهربائية فى الاتحاد السوفييتى أضعاف أضعاف ماحلم به لينين ، ولكن روسيا ، لا أقول أبعد ماتكون عن الشيوعية التى حلم بها ماركس ولينين مطور مذهبه ونظرياته ومطبقها ، بل أبعد مايكون عن مستوى الحياة فى دول غرب أوربا فضلا عن الولايات المتحدة الأمريكية ، إن مالم يدر بخيال ماركس وتلميذه لينين ، أن الفوتوغراف فى زمن لينين على سبيل المثال هو أمنية كل عالم وفلاح ، فلا يكاد الإنتاج يعمل فى هذه الناحية ، وقبل أن يخطو خطوة جادة فى توفير الفوتوغرافات فسوف يخترع الراديو ، وقبل أن تستطيع الدولة فعل شىء فى هذا الموضوع ، سيكون هناك التليفزيون الأبيض والأسود ثم الملون وهكذا ، وسيكون من أمنية كل عامل يوما ما أن يحصل على ثلاجة كهربائية ، وعلى موقد كهربائى ، وعلى تليفون وسيارة وأن من يحرم من هذه الأجهزة فى العصر الحديث يعتبر نفسه تعسا وشقيا ، ومن هذه الناحية يأتى الاتحاد السوفييتى فى مؤخرة العديد من الشعوب ، والله وحده يعلم ما الذى سيجىء به المستقبل .

إن حاجات الإنسان لا يمكن أبدا أن تحدد ، ولا يمكن القول أبدا بأنه سيكون فى مقدور أى فرد فى يوم ما أن يطوف حول العالم على متن الطائرات وعندما يصبح هذا ممكنا لكل إنسان من البشر ،

فستكون الرحلة إلى القمر قد فتحت على مصاريعها ، ولنسرف فى الخيال فنقول أنه سيجىء وقت يصبح بإمكانية كل فرد ـــ إذا أراد ـــ أن يصل إلى القمر ، ففى ذلك الوقت سيكون الطريق قد فتح إلى الكواكب الأخرى كالمريخ ، على أننا تطوحنا مع الخيال ، ونحن لسنا فى حاجة للذهاب إلى هذا المدى ، ففى الاتحاد السوفيتى بعد خمسين سنة من الإنتاج العلمى الكثيف ، الذى لم يسمع بمثله حيث بنيت عشرات الملايين من المساكن ، لا يزال يوجد فى روسيا عشرات الملايين من العمال الذين لا يجد الواحد منهم غرفة واحدة لتكون سكنا خاصا له وقد طالعت فى كتب سوفييتية كيف أن بطل إحدى القصص يغبط نفسه لأنه وجد ركنا فى حجرة لينام فيها ، ويتحدثون عن هذه بأنها أزمة عارضة نتيجة الحرب العالمية الثانية ، ولكن يرد على ذلك بحالة ألمانيا الغربية التى سويت مدنها بالأرض ، وكان سكانها فى المدن يعيشون كالحيوانات تحت الأنقاض وفى الكهوف ، ثم نهضت ألمانيا نهضة جبارة وأصبحت كما قدمنا أغنى دولة فى أوروبا ، يقولون إن ذلك تم بمساعدة رؤوس الأموال الأمريكية ، ونحن لا يعنينا السبب بقدر مانسجل الظاهرة ، وهو أن الاتحاد السوفييتى أبعد فى سنة ١٩٧١ عما كان عليه قبل ذلك .

ونعود إلى جوهر القضية ، وهو أن الادعاء بأن سيجىء وقت يصل فيه الإنتاج بحيث يكفى حاجة كل إنسان عندما يتغير النظام هو مجرد حلم لا يمت إلى الواقع الإنسانى ، وقد أغفل هذا التصور الحقيقتين المؤكدتين وهو تزايد سكان العالم ، ولا سبيل لإيقاف هذا

التزايد إلا بالامتناع عن التناسل أى حرمان الإنسان من أعز حاجاته بعد الطعام والشراب ، لأن التناسل هو استمرار الحياة نفسها .

والحقيقة الثانية التى أغفلها هذا الحلم هى أن حاجات الإنسان تكثر وتتعدد على مر الأزمان فما هو صالح له اليوم لا يعود كافيا له فى المستقبل ، لقد كان اقتناء حمار فى يوم من الأيام هو أمنية وطلبة كل راغب فى الانتقال من مكان إلى مكان ، أما اليوم فالأمر لم يعد كذلك فالذين يتصورون أنه يمكن سد حاجات كل إنسان يحصرون هذه الحاجات فى لقمة الخبز أى يتصورون الإنسان على حالته البدائية .

إن الأديان السماوية التى تعد الإنسان بإشباع كل حاجاته أكثر منطقية من الماركسية ، لأنها جعلت ذلك سيتحقق فى حياة أخرى من نوع يختلف كل الاختلاف عن حياتنا الحاضرة حيث النواميس غير النواميس ، والظروف غير الظروف .

وهكذا لم نعد نحتاج إلى أن نموت قبل أن نرى إفلاس ادعاء ماركس بجنته الموعودة ، وأن كلامه محض خيال وتمنيات .

الحوافز الذاتية والربح :

يمثل الربح فى المذهب الماركسى اللعنة الأبدية فى النظام الرأسمالى ، وليس الربح فى حقيقته كما ذكرنا من قبل إلا فائض القيمة الذى يستحقه كل عامل فى مقابل عمله ، ولكن الرأسمالى يغتاله منه مؤلفا بذلك مايسمى بالربح ، وكما يلعن المتدينون الشيطان باعتباره أس

كل خطيئة فكذلك يعتبر الاشتراكيون الماركسيون أن الربح هو أس كل خطيئة فى النظام الرأسمالى ، وعندما يدافع الرأسماليون عن أنفسهم متحدثين عن وجوب الحافز الفردى لدى أى إنسان لحمله على العمل والإنتاج والإبداع فى الإنتاج ، سخر الشيوعيون بهذه الأقوال التى هى بعض أدران الرأسمالية ، وأن هذه المشاعر الزائفة سوف تزول بالتدريج فى ظل النظام الاشتراكى ، حيث يصبح العمل من أجل الجماعة والتجويد فيه هو طابع أى شخص ، ثم جاء التطبيق الاشتراكى فى روسيا ، ومر فى مراحل ثلاثة : أيام لينين ثم ستالين ، ثم خلفاء ستالين .

فأما فى أيام لينين فى أعقاب الثورة فقد عمت الفوضى وهجر كبار الملاك أراضيهم خوفا على أنفسهم وكذلك أصحاب المصانع فكادت الأرض تبور والمصانع تتوقف فأرسل لينين صيحته المدوية « اغتنوا قدر ماتستطيعون » فأقبل الزراع على الأرض التى هجرها أصحابها يتملكونها ويعملون فيها بأقصى قوة وهكذا دارت عجلة الإنتاج من جديد ونجت البلاد من المجاعة ، وقد كانت هذه مرحلة انتقال كما يقولون وكان لا بد منها ، والذى يهمنا أن لينين لم يعن بالماركسية وتطبيق نظرياتها فى تحريم الملكية الخاصة ، وقانون الربح والدوافع الذاتية وإنما تصرف على العكس من ذلك كله ليجتاز الأزمة التى تعرضت لها بلاده ، ومات لينين تاركا وراءه مجتمعا أكثر استقرارا ، وتاركا الحزب الشيوعى (البلشفى) أكثر سيطرة وإحكاما . وجاء ستالين ، ولسنا نريد أن نخرج عن موضوع كتابنا فنسهب فى ذكر أعمال ستالين الوحشية ، كيف خضب أرض الاتحاد السوفييتى بملايين من الضحايا

وكيف جعل الحياة فى روسيا جحيما لا يطاق .

أقول لست أريد ، ولعل القارىء قد لاحظ ذلك ، لست أريد أن أسهب فى ذلك حتى لا يقول لى قائل إن ذلك خطأ فى التطبيق ، فما ذنب ماركس فى ذلك ، ولكن ستالين قد ارتكب ماارتكب مستخدما نظرية ماركس فى صراع الطبقات وأن ديكتاتورية البروليتاريا تعنى تصفية كل العناصر المقاومة للاشتراكية بلا رحمة .

وعلى أية حال فقد أغنانا خروشوف خلف ستالين فى التحدث عن هذه الأهوال وقد تحدثنا عنها فى كتابنا عن الطاقة الإنسانية حيث نقلنا بعض ماقال خروشوف فى هذا الصدد ، أما هنا فحسبنا أن نسجل أن ستالين — بعد عشرين سنة من بدأ الثورة الشيوعية — أراد أن يقنن الثورة الاشتراكية فوضع دستورا للاتحاد السوفييتى ، ويهمنا من هذا الدستور تقريره لثلاث ألوان من الملكية : ملكية الدولة والملكية الجماعية (الكولخور) والملكية الفردية ، ويهمنا من هذه الأصناف الثلاثة النوع الأخير منها ، إذ سمح لبعض الفلاحين تملك بيوتهم الخاصة ، وتملك مايساوى ثلث فدان ملحق بالبيت أشبه بالحدائق الملحقة بالبيوت ، وسمح للفلاحين أن يتصرفوا بحرية فى منتجات هذه المزارع الصغيرة الخاصة فأصبح الفلاحون يبيعون بأنفسهم مايفيض عن حاجتهم من هذه المزارع الخاصة والذى أذهل كل من فى روسيا أن الفلاح الروسى أصبح ينتج من هذا القدر الضئيل الذى سمح له به أضعاف أضعافماينتجه فى مزارع الدولة ، أو المزارع الجماعية مع

توفر كل الإمكانات الآلية والكيمائية والعلمية فى هذه المزارع الأخيرة ، وحرمان الفلاح وهو يزرع أرضه الخاصة من كل التسهيلات والإمكانات ، أى أنه يزرع هذا الجزء من الأرض بطريقة بدائية بحته ، ومع ذلك فهو ينتج منها من حيث الكم والكيف مايفوق أضعاف مضاعفة العمل الجماعى ، ولا تفسير لذلك بطبيعة الحال إلا توفر الحافز الفردى ، والرغبة فى الربح ، ولكن ستالين بطبيعة الحال نجح فى إرهاب كل من فى روسيا لكى لا يتلفظ بهاتين الكلمتين (الحافز الفردى ـــ الربح) .

الحركة السيخانوفية:

وإذا كان هذا قد حدث فى الزراعة فقد حدث فى الصناعة شىء مماثل يتفق وظروف الصناعة ، إذ عمدت الدولة إلى تشجيع أى عامل يبتكر مايساعد على زيادة الإنتاج بإعطائه راتبا مضاعفا وعديدا من الامتيازات ، وسرعان ماانتشرت هذه الحركة وسط صفوف العمال وقد أطلق عليها اسم الحركة السيخانوفية نسبة إلى سيخانوف ، وهو أول عامل ابتدع طريقة جديدة لزيادة إنتاج الفحم بواسطة إعادة تنسيق عمل العمال فى المنجم ، وبدأت الدولة تكافىء العمال المتفوقين بالأوسمة والنياشين وبما هو أكثر من ذلك أى بضمهم إلى عضوية الحزب التى أصبحت امتيازا لا يحصل عليه إلا السعداء ، والمهم أن الحركة السيخانوفية ليست إلا عودة لفكر الحوافز الفردية ولكن أحدا ـــ أيام ستالين ـــ لم يكن يجرؤ أن يسميها كذلك وإلا كان مجدفا فى حق

الماركسية التى تنكر كل حديث عن الحوافز الفردية ، وتعتبره كفرا ورجسا ورجعية وردة .

ومات ستالين وجاءت مرحلة مابعد ستالين ، وزال الخوف والرعب وبدأ الروس يمدون أبصارهم إلى ماوراء الحدود إلى المعسكر الآخر الشرير معسكر الرأسمالية ، ووصل الأمر إلى حد أن زار خروشوف أمريكا نفسها ... ولما راح يفتخر أمامهم بأنه كان أحد عمال المناجم حدثوه عن ماسحى الأحذية الذين أصبحوا من أصحاب الملايين ، ولم يكن هذا الذى استوقف خروشوف والروس من ورائه ، قدر ما استوقفهم أن الفلاح الأمريكى ينتج أضعاف ماينتج الفلاح الروسى ، وأن الانتاج الزراعى الأمريكى بصفة عامة يفوق الإنتاج الزراعى الروسى بمراحل ، ناهيك بالإنتاج الصناعى ولم يعد بالإمكان أن يقال إن أمريكا تزرع أو تصنع بالطرق العلمية ، فقد برهن الروس على أنهم لايقلون من ناحية التفوق التكنولوجى عن الأمريكان إن لم يزيدوا ، وقد رأينا كيف كانوا هم البادئين فى رحلات الفضاء وما تمثله من تفوق علمى .

وإذن فالمسألة ليست مسألة آلات بقدر ماهى فى هذا الدافع الذاتى لكل فرد فى أمريكا ليحصل على أكبر قدر من الثراء ، ومن هنا بدأ الروس يراجعون موقفهم وكانت كل المشكلة عندهم أن يوجد عالم اقتصادى يصوغ لهم المطلوب من أن لا تعارض بين الربح وبين الماركسية وبين الحوافز والدوافع الذاتية وبين الماركسية ، فالربح هنا هو ربح العمال فى مجموعهم وهو عائد عليهم ولا عيب فى الحديث عن الحافز الشخصى

مادام أن المجتمع قد خلا من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وهكذا أصبح الحديث عن الأرباح والحوافز الفردية يتردد جهارا نهارا ، بل وبدأ يعتبر الأمل الجديد فى أن يقفز الإنتاج الروسى قفزة جديدة إلى الأمام .

غير أن الذى لا أستطيع فهمه أنا شخصيا ، كيف وصل الأمر إلى حد الاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية لتفتح المصانع فى روسيا ، وقد أشرنا من قبل إلى ماتستثمره اليابان فى سيبريا ، ومن حين لآخر تطالعنا الصحف باستعانة روسيا بشركة فيات الإيطالية لتفتح مصنعا للسيارات فى روسيا ، فلسنا ندرى على أى أساس تتم هذه الاتفاقات بين الروس الماركسيين ، وبين هذه الرأسمالية الأجنبية ، والأمر المحقق أنها تتم على خلاف كل ماقال به ماركس ودعا إليه ، والعجب كل العجب أن يتم ذلك بعد خمسين سنة من التطبيق الاشتراكى وبعد أن أصبحت روسيا تسيطر على أعظم قوة إنتاجية فى أوروبا .

الأوانى المستطرقة :

إن ماغاب عن كل تفكير ماركس بالرغ من أنه بنى كل فلسفته عليه بأنه لاشىء يقف جامدا وليست هناك أسوار وحدود بين الأفكار ، وكما يقال فى الطبيعة المادية أن سطح الماء يكون دائما على مستوى واحد فى الأوانى المتصلة ، فكذلك الشأن فى دنيا الأفكار ، فهى تتفاعل وتتقارب ويؤثر بعضها على بعض فالعالم الرأسمالى قد تأثر بتعاليم ماركس وخاصة بعد أن وجدت لها معقلا فى روسيا ، وقد ساعد على تطوره التقدم الآلى الكبير ، فكان هذا الذى كان من إشراك العمال فى

الأرباح ، ورفع مستواهم وتحسين أحوالهم إلى الحد الذى جعل تعاسة العمال وقفا على المجتمعات المتخلفة والمجتمعات التى تبدأ فى بناء اشتراكيتها فتفرض على العمال ظروفا قاسية يعملون فى ظلها ، وكما تأثر المجتمع الرأسمالى بالأفكار الجديدة فكذلك تأثر المجتمع الاشتراكى بالأفكار القديمة بعد أن أثبتت له تجربته الخاصة بصحتها ، وأن القديم ليس خطأ كله مجرد كونه قديما ، وأن الجديد ليس صحيحا كله لمحض كونه جديدا . والذى يهمنا من ذلك كله هو فساد ماتصوره ماركس أن التقدم والتطور سيأخذ صورة معينة محتوية وأن لامناص من الصراع الطبقى الدموى ، فذلك لم يعد يحدث إلا فى المجتمعات الجاهلة المتخلفة الفقيرة وليس كذلك فى المجتمعات الغنية المتعلمة المتقدمة وهو مايناقض على خط مستقيم كل ماقال به كارل ماركس .

المادية الجدلية:

نصل الآن إلى مناقشة الأساس الذى أبى ماركس إلا أن يقيم بنيانه عليه وهو مأسماه بالمادية الجدلية أو بحسب تعبيره (الدياليكتيكية) ومتى كانت النتائج فاسدة فلابد أن تكون المقدمة فاسدة ، ومع ذلك فلنناقش هذا الجديد الذى يدعى المفتونون بكارل ماركس أنه قد جاء به .

إن الحديث عن المادة ليس أمرا جديدا فمنذ كان الإنسان إنسانا وجد من لا يعترف إلا بالمادة المنظورة أو التى يدركها الإنسان بإحدى حواسه ، فما من أمر غيبى إلا وقد انقسم البشر حياله إلى

قسمين ، مصدق ومكذب ، فكون المادة هى أساس الكون مسألة لاجديد فيها ، ولكن ماركس وصف هذه المادة بأنها جدلية ، أى أن فيها خصائص ومايضاد تلك الخصائص ، ويدور الصراع والنضال بين المتناقضين فينشأ من هذا الصراع بين المتناقضين وضع جديد يحمل خصائص جديدة وفى نفس الوقت ينطوى هذا الوضع الجديد على مايناقضه ، ويدور الصراع من جديد بين التناقضات الجديدة ، إلى أن ينشأ وضع جديد وهكذا دواليك ، وتتم هذه الحركة بموجب قوانين المادة الذاتية ، ويؤدى ذلك أن المادة قديمة أزلية تحرك نفسها بموجب قوانينها ، وكل هذا لاجديد فيه كما قدمنا فالنزعة المادية موجودة دائما أبدا .

ومن المضحك القول بأن الجديد هو وصف المادة بأنها تتطور وتتحرك من خلال التناقض وأن هذه هى الإضافة الجديدة التى أضافها ماركس ، فليس فى الكون من حولنا ماهو أظهر من الصراع بين المتناقضات وأن الحياة تنطلق من هذا الصراع ، فمن ذا الذى لا يرى الليل والنهار أو بالأحرى الظلام والنور ، وتعبيراتنا اللغوية تتحدث عن هذا الصراع فنتحدث عن جيوش الليل التى ولت أمام النهار أو العكس بالعكس ، أى إنسان منذ كان الإنسان إنسانا لم يشهد الصراع بين الحياة والموت عندما يمرض الإنسان فتارة ينتصر الموت وتارة تنتصر الحياة ، واستمرار حياة كل إنسان معناه أن الصراع الذى لا ينتهى داخل جسده ، قد أسفر عن انتصار الكرات البيضاء على الميكروبات وكل العوامل الدخيلة على الجسم التى تهدف إلى هلاكه ، ولم يتصور البشر فى أى يوم من الأيام الحياة فى كالها إلا أنها انتصار الخير على الشر فهما

فى عراك دائم .

وقد قامت فى القديم جدا ديانة الفرس على أساس الازدواج (الثنائية) الخير والشر والظلام والنور والموت والحياة والصحة والمرض والجدب والازدهار وأن الحياة صراع دائم بين إله الخير (اهورامزدا) وبين إله الشر (اهريمن) وعندما جاءت الأديان السماوية بتوحيد الألوهية لم تغفل بدورها الصراع الأبدى فكان الشيطان رمزا على الجانب الآخر من النشاط . والإنسان — كل إنسان — فى صراع مستمر ضد قوى الطبيعة ، والصراع الدائم المستمر مع نفسه فيما يجوز ولا يجوز ، وإن كل شيء فى الحياة مرتبط بنقيضه ولا يمكن فصله عنه حتى لنقول فى كلماتنا الشائعة « وبضدها تتمايز الأشياء » فماركس لم يأت بجديد ، وخلفاؤه من بعده عندما يحبرون الكتب الطويلة فى إثبات هذا التناقض وأنه السر فى الحركة ، إنما يفسرون الماء بعد الجهد بالماء ، ولا يضيفون حرفا جديدا إلى ماسبقوا إليه ، فمن قبل ألف سنة قبل الميلاد كتب أرسطو كتابه عن الكون والفساد والحل والتركيب وأن الطبيعة هى الحركة ، وتحدث فلاسفة الإغريق عن الصيرورة الدائمة أى التغير المستمر .

بقى ماقال به كارل ماركس ليحدد نوع ماديته ، فقال : إن الأفكار فى الدماغ هى انعكاس للواقع المادى ، وهذا يجرنا إلى اختلاف البشر فى الفكر منذ كانوا بشرا إلى قسمين : قسم يقول : إن الفكرة قد سبقت المادة ، وقسم يقول : بل المادة سبقت الفكرة ومن هذا القسم الأخير الماركسية .

وقبل أن نمضى فى مناقشة هذا القول يهمنا أن نسجل صعوبة إثبات أحد الرأيين ، لأننا نتحدث عن بداية الطبيعة التى لم يشهدها أحد والمهم الآن أن لدينا واقعا ماديا نلمسه بأيدينا ، وهناك أفكار فى رؤوسنا وهذه الأفكار تتفاعل مع الواقع المادى وكل منهما يؤثر على الآخر ، هذه حقيقة مقررة يعترف بها كارل ماركس ، وإذن فلا جديد فى كل مايقول به إلا أنه أخذ بالرأى الذى يقول فى البدء كان المادة ، وذلك فى مقابل من يقول ، فى البدء كان الكلمة ، ويعنى بالكلمة « الله » .

ومايدعيه ماركس ليس أسهل على العقل ، فأن تكون المادة قديمة أزلية خالدة ، لا أول لها ولا آخر ، فعالة أوجدت نفسها بنفسها ، أو هكذا وجدت ولا يجب أن نكد أنفسنا فى التساؤل عن أسباب وجودها وسر وجودها ، والمهم أنها موجودة وهى واقع ، وعلينا أن نبنى حياتنا على هذا الأساس ، كل هذا لا جديد فيه فالإيمان بالله لا يخرج عن هذه الصورة ، فالله قديم أزلى خالد أوجد نفسه بنفسه ، وعلينا أن نوفر على أنفسنا التساؤل كيف وجد ؟ وماذا يريد ؟ والمهم أننا موجودون ويجب أن نتفاعل مع الواقع ، ونحيا حياتنا على آخر مانستطيع .

كما بقى أن نلفت النظر إلى أن ماركس لم يكن فيلسوفا ولم يكن يفكر لمجرد المعرفة ، بل كان زعيما تملكته فكرة محاربة البؤس والشقاء الذى كانت تعانيه الطبقة العمالية فى عصره ، فراح يصوغ نظرية علمية يتوصل من خلالها إلى تحريك العمال لتحسين أحوالهم ، وهو هدف قد

سعى لتحقيقه كل المفكرين الإنسانيين ، وما الأديان فى حقيقتها إلا دعوة لمحاربة الشقاء ، وإحلال أكبر قدر من التناسق والتعاون بين البشر لتخفيف ويلات الإنسانية ، وهو عين ماهدف إليه ماركس إذا ما أحسنا به الظن ، كل الذى يعاب على ماركس أنه تأثر كل التأثر بنظريات دارون من أن سمة الحياة هى تنازع البقاء ، وأن البقاء للأصلح ، ولذلك فقد دعا إلى الوصول بالتنازع إلى ذروته ولا لوم ولا تثريب فى إراقة الدماء واستخدام كل وسائل العنف للقضاء على الطبقة التى أصبح من المحتم أن تزول وهى الطبقة الرأسمالية لحساب طبقة المستقبل وهى طبقة العمال .

والمضحك فى نظرية ماركس أنها لأمر ما تقف عند حد القضاء على الرأسمالية من أن كل شىء بعد ذلك سيكون على مايرام ؛ إذ سيوجد مجتمع لا طبقى ، وأعجب لمادة جدلية تقوم على الحركة من خلال التناقض ، عندما يقال لك إن هذا التناقض سوف يكف وينتهى بمجرد زوال الرأسمالية ، كيف تسير الحياة إذن إذا خلت من التناقض ، سؤال لا يكلف الماركسيون أنفسهم عناء الرد عليه ، على أن ستالين أعظم ممثل للماركسية كما يقولون رد على هذا التساؤل بأن عملية النقد والنقد الذاتى هى التى تحقق للمادة جدليتها أى تناقضاتها ، وهكذا لم تعد المسألة مسألة مادة تتفاعل — والأفكار هى انعكاس لها — وإنما النقد والنقد الذاتى — وهى عملية فكرية بحتة — هو الذى سوف يلجم المادة ويحدد طريقة تصرفها ، وهكذا حكم على قول ماركس — من أن المادة هى التى تصنع الفكرة — بالإعدام ، بعد أن أصبحت

الفكرة هى التى تصنع المادة .

والخلاصة :

أن ماهو حق وسليم فى أقوال ماركس ، كقوله إن الكون يقوم على الأضداد ، وإن المادة فى حالة تطور وتغير ، كل ذلك لا جديد فيه وأن ماحاول ماركس أن يبتدعه من القول أن وسائل الإنتاج وملكيتها هى التى تكمن وراء كل تطور فى المجتمع ، ففضلا عن كون هذه النظرية لاتستطيع أن تفسر حوادث التاريخ الكبرى فهى لم تستطع أن تفسر مايقع فى العالم هذه الأيام ، وقد رأينا كيف تجرى الأمور على خلاف كل توقعات ماركس كنتيجة حتمية لنظريته .

وإذا كان لايزال علىّ — وقد هدمت نظرية ماركس — أن أقول شيئا بناء ورأيا إيجابيا ، فإننى أجمل رأيى فى بضع سطور :

إن الحياة الإنسانية هى الحياة الإنسانية ، منذ كان الإنسان إنساناً ، وستبقى كذلك إلى ماشاء الله قياساً على الماضى ، ومن العبث أن يتصوَر متصور أن هناك وضعا مستقرا يحقق للإنسان الراحة والسعادة فالأمور نسبية ، وكلما قطع الإنسان أى إنسان ، شوطا ما انفسحت أمامه أشواط أبعد ، ليظل الإنسان يعدو ويلهث ، حتى يدركه الموت وما أصدق ماقالته حكمة الدهور أنه لو كان للإنسان واد من ذهب لأحس بالحرمان لأنه ليس له واديان وهكذا ، إن الإنسان كلما تعلم وترقى زادت أطماعه وزاد شعوره بالحرمان ، إن أبناء أمريكا الذى يبلغ متوسط دخل أحدهم ألفى دولار فى العام ، يحسون بالقلق

والحرمان بأكثر مما يحسه أحد الهنود أو الأفريقيين الذى لايتجاوز دخل أحدهم بضع دولارات ، فكل حديث عن السعادة وارتفاع الشقاء ، إذا حدث هذا الأمر أو ذاك ، أو تغير هذا النظام بذلك النظام هو محض أوهام وتعلق بالخيالات وهو لا يعدو أن يكون تسرية عن نفس المتخيل والمتوهم ، وأنا اليوم وبعد ستين سنة من التقلب فى الحياة ، أعود إلى حكمة الدهور وهى أن أجمل مافى الحياة هو الرضا والقناعة ، وصدق من قال « القناعة كنز لا يفنى » وأن الشىء الوحيد الذى يجعل الحياة محتملة هو عاطفة الحب ، وأن تطبيق هذه القاعدة على المحيط العام للإنسان تفرض عليه أن لا ينام شبعاناً وجاره جائع ، أو ينام سليما معافى ولا يمد يد العون لزميله المريض .

وإذ كانت الدولة قد أصبحت بصفة عامة مسئولة عن جميع أفراد المجتمع فيجب أن تعمل الدولة على أن توفر قوتا لكل جائع ، وعملا لكل عاطل ، وعلاجا لكل مريض ، هذه هى الصورة المطلوبة فى الحياة الإنسانية تطبيقا لقاعدة الحب التى هى قوام الحياة ، ولا يهم شكل النظام الاقتصادى بعد ذلك .

وليس فى هذا الذى أقوله جديدا فهو مادعت إليه الأديان كلها وجميع المذاهب الإنسانية ، حتى كان ماركس فأراد أن يسخر بذلك ، فكان أن شقيت الإنسانية بما لم تعانيه عبر كل الدهور ، وعلى ذلك فلنرجع إليه لنتواصى بالحب لا بالكراهية ، وبالتراحم لا بالقسوة ، وليعتبر كل منا أمانة فى عنقه أن يمد يده إلى كل محتاج إلى العون ، وهذا كلام

يسميه ماركس سفسطة ، وليس يرهبنا كلامه بعد أن أثبتت الأيام
بطلان كل كلمة نطق بها .

* * *

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٢٦٥ / ٨٩

الترقيم الدولى ٣ ـ ٤١ ـ ١٤٢٢ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN